ليوتولستوي

الحرب والسلام

رواية

تقديم ودراسة

جان جيهينو

الكتاب: الحرب والسلام (رواية)

الكاتب: ليوتولستوي

تقديم ودراسة: جان جيهينو

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ليوتولستوي

الحرب والسلام (رواية)/ ليوتولستوي، تقديم ودراسة: جان جيهينو

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٨٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٦٨ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٩٦ / ٢٠٢٠

الحرب والسلام

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تولستوي في حرب وسلام مع الموت

"الطمأنينة خداع من الروح"

ليون تولستوي

إن أقدم ذكريات "تولستوي" هي ذكرى حادث حمام في طفولته، حين كانوا يغسلونه في طست خشبي؛ فلقد كتب فيما بعد يستعيد هذه الذكرى، فقال: "كانت هذه أول مرة لحظت فيها جسمي الصغير، وأحببته" ولقد نما جسمه، وطالما كان يشق عليه إشباع رغباته ومطالبه؛ ودام حب "تولستوي" لجسمه إلى درجة أنه سجل في مذكراته أكثر من مرة أنه عاش " عيشة بهيمية حقاً" غير أن هذا الرجل ذا الشبق المفرط "الذي لا يفتر"، وهذا الفارس المجلي القناص الدببة "الذي كانت له نظرة الذئب" وصرامته، والذي كان ينقض على الأشياء والمخلوقات كمن ينقض على فريسة – كان إزاء الموت يحس برهبة طفولية، وربما كانت تلك الرهبة هي السبب الأول الذي كمن وراء تطوره وإبداعه الأدبي.

ففي أثناء الحرب، اعتاد "تولستوي" النظر إلى مشاهد الموت، إلاأن هذا الموت كان ينزل بالآخرين؛ وذلك ما صرف نظره عن التفكير فيه، حتى آل به الأمر إلى عدم إعارته أي اهتمام، أما في هدأة السلم وطمأنينته، فماذا عسى أن يكون موقفه منه؟ لقد كان "تولستوي" يقول عن نفسه: إنه "معتل الصحة، قوي البنية"، فما سر هذا الإحساس

بالضيق الذي كان ينتابه، أو تلك الحمى التي كانت تعتريه؟ وما بعث شعور القلق والخوف الذي كان يستبد به في أمسية كل يوم حين تقترب الساعة السادسة؟.

كان "تولستوي" متخوفاً، وكان إحساسه بالخوف يعدل نشوة الحياة التي يكاد يعيش فيها دائماً، فلقد كان هناك على الأخص ذلك المرض الوراثي في أسرته، وسيطر على تفكيره "كابوس السل"؛ إذ أنه رأى اثنين من إخوته يذهبان ضحية هذا الداء العضال: أولهما "متينكا" الذي كان "تولستوي" يرى فيه صورة واضحة لجانب كبير من نفسه، وكان "متينكا" شاباً غريب الأطوار، يغلب عليه طابع الجد والتقوى. وفي السادسة والعشرين من عمره، انقاد إلى رفقاء السوء، وانغمس في الموبقات لأول مرة وهو في هذه السن، فعقد العزم على الأخذ بيد أول امرأة عرفها وانتشالها من عالم الرذيلة، فعاش معها، مثله في ذلك مثل بطل قصة "العبث" التي كتبها "تولستوي" فيما بعد، وتشاء الأقدارأن يسلم "متينكا" الروح بين أحضان هذه البغي. وقد عاد "تولستوي" أخاه قبل أن يموت بثلاثة أسابيع، فظلت ماثلة في ذهنه ذكرى "عينيه، هاتين العينين الجميلتين، اللتين تفيضان أسى وحزناً، واللتين اتخذتا –كما بدا له– نظرة غريبة فيها دهشة وتساؤل".

وما إن مضت على موت أخيه "متينكا" ثلاث سنوات، حتى جاء الدور إلى أخيه "نيكولينكا" ليختطفه الموت، "نيكولينكا" ذلك الأخ الرقيق الخيالي الذي كان يشبهه، والذي دله، عندما كانا طفلين صغيرين،

على مخبأ "العصا الخضراء السحرية الصغيرة" التي تجلب السعادة. وكان الأخوان قد ذهبا إلى ألمانيا لاستشارة كبار أطبائها، وسرعان ما اطمأن "تولستوي" نفسه على سلامه جسمه، وخلوه من داء الصدر، غير أن أخاه الذي بعث به الأطباء إلى جنوبي فرنسا، ما لبث أن أرسل إليه يستدعيه، فلحق به "تولستوي" في بلدة "هيير" وظل ساهراً عليه مدة دامت خمسة وعشرين يوماً، كان "نيكولينكا" في أثنائها يبدو كأنه مستغرق في سبات عميق، وعلى حين غرة، فتح عينيه وغمغم: "ما هذا؟" وإذا به قد أسلم الروح! وتملك "تولستوي" الذعر والرهبة، فكتب في ذلك يقول: "ونحن كذلك، سيجيئنا يوم نصحو فيه من غفوتنا، ونقول واجفين: ما هذا؟". ومنذ ذلك الحين، لم يجد "تولستوي" خلاصاً من هذا السؤال.

ولقد تزوج "تولستوي" "سونيا بيرس"، وكان الزوجان في شجار دائم ونزاع مستمر، وكثيراً ما بلغت منازعاتهما حداً عنيفاً مرعباً، غير أن كل شيء كان ينتهي عندما يدلف الزوجان إلى "الفراش"، فكان "تولستوي" بذلك راضياً سعيداً.

ولكنه ذات يوم خرج إلى الصيد، وراح يطارد أرنباً برياً، فسقط عن صهوة جواده، وأغمى عليه، إذ لوت السقطة ذراعه، ولم يبارحه الألم أسابيع طويلة، حتى لقد تطلب الأمر إجراء عملية جراحية. وعندما رقد "تولستوي" تحت تأثير المخدر، تفوه في غيبوبته بعبارات غريبة: مثل: "محال أن تستمر الحياة على هذه الصورة!" ومنذ ذلك الوقت، يبدو لنا

"تولستوي" معذباً، يلوم نفسه على ما ينعم به من رفاهية وسعادة، فكان لا يكف عن التفكير في الموت، في موته هو، حتى إن "سونيا" زوجه كانت تقول عنه: "إن أفكاره وتصرفات كانت كثيراً ما تنضح بما يجافي العقل، حتى لكأنما يتقمصه شيطان" وما من فكرة راودته إلا كان من الممكن أن تنقلب –لشدة تعمقه فيها– إلى ضرب من الجنون، إذ كان يتعمد الاسترسال إلى هذه الفكرة والمضي بها إلى أقصى احتمالاتها ونتائجها، أيإلى الحد الذي يقف عنده العقل، ذلك الحد الذي يقول عنه الناس: "إن فيه خروجاً على الأصول والقواعد المتعارف عليها"، فكانت هذه اللحظة بالنسبة إلى "تولستوي" غيرها بالنسبة إلى سائر الناس، إذ كانت هي اللحظة التي يتوقد فيها ذهنه، ويستيقظ انتباهه.

وفي عام ١٨٦٩م قام "تولستوي" برحلة يصحبه أحد الخدم، قاصداً بلدة شرقي روسيا، بالقرب من مدينة "بينزا" لشراء ضيعة، وفي أثناء الرحلة، نزل الركب ذات أمسية في نزل ريفي بقرية: تدعى "آرزاماس"، وقد خطر لتولستوي بالجنون، إذ حدث له شيء عجيب يصفه فيما يلي في كتاب لزوجه "سونيا" فيقول: "كانت الساعة تؤذن بالثانية صباحاً، وكان التعب قد أخذ مني كل ما أخذ، وإن لم يكن هناك في جسمي عضو بعينه يؤلمني على وجه أخص، وعلى حين فجأة استبد بي قلق، بل خوف أو رعب لم أحس مثله طيلة حياتي، وسأصف لك الأمر بدقة فيما بعد، بيد أنني لا أذكر قط أني أحسست مثل هذا الإحساس المؤلم، وبحق السماء، لا أتمنى أن يشعر أحد مثل هذا الشعور. وقد نهضت مذعوراً، وأصدرت أوامري بإعداد العدة للسفر،

وفي الفترة التي استغرقها تنفيذ الأمر، غفوت قليلاً، ثم أفقت هادئاً .. إنني أستطيع أن أبقى بمفردي إذا كان لدي من المشاغل ما لا يدع لي مجالاً للراحة، ولكنه إذا لم يكن هناك ما يشغلني فإني ساعتئذ أحس أنه لا سبيل لي إلى البقاء وحدي".

ولقد ظلت ذكرى ليلة "آرزاماس" هذه ماثلة في ذهن "تولستوي" أبداً، حتى إنه اتخذ منها، بعد مضي خمسة عشر عاماً، موضوعاً لقصة أسماها "مدونات مجنون" وهي رواية تبعث الرعب في النفوس، وأغلب الظن أنها تصور، بدقة، ما تراءى له في تلك الليلة من رؤى وهواجس، لم يجسر أن يطلع "سونيا" عليها جميعاً.

وفي هذه الرواية، يطالعنا "تولستوي" بحجرة المنزل نفسها، وهي حجرة أشبه ما تكون بشيء "أحمر، وأبيض، ومربع"، يروي فيها البطل: أن الرعب يملأ نفسه، وأنه يريد أن ينام، ولكنه لا يجد إلى ذلك النوم سبيلاً، "ما الذي جاء بي هنا؟ وإلى أي جهة أذهب؟ ومما أهرب؟ .. أأنا؟ أإياي؟ هأنذا بكليتي أواجه نفسي، إنني ضقت ذرعاً بنفسي... إني لا أستطيع الخلاص من نفسي. خرجت إلى الدهليز، وأبصرت خادمي "سيرجي" يغط في نوم عميق فوق دكة ضيقة، وكان حارس الليل ذو الوجه المجدور نائماً كذلك، وظل هذا الإحساس الغامض يلاحقني، ويزيد من قنوطي واكتئابي، وكنت لا أزال خائفاً، وكلما مرت لحظة ازددت خوفاً على خوف، فقلت لنفسي: "إنه لهراء، علام هذا القلق؟ ومم الخوف؟": "مني، قالها الموت بصوف خافت، إني ههنا"، فشعرت

برعدة تنتابني. الموت! إنه قادم؛ إنه هنا، ها هو ذا. إن كياني كله يشعر برغبة جياشة في الحياة، ويحس في الوقت نفسه ان الموت قد سرى في أوصاله .. وقد عثرت على شمعدان نحاسي، فأشعلت الشمعة وقد احترق نصفها؛ وكأنني أحس الفتيل المتوقد يقول لي هو أيضاً: "لا شيء في هذه الحياة؛ لا شيء إلا الموت". أما كان الأفضل ألا يكون للموت وجود؟.. يبدو أننا نخشى الموت؛ ولكننا نتذكر الحياة، وإذا ما فكرنا فيها، يصبح موت الحياة أشد ما نخشاه. لقد اختلط عليّ أمر الموت والحياة، وهناك قوة مجهولة تعذب روحي، لكنها لم تفلح في تمزيقها... إنهم أخذوني اليوم إلى المستشفى للكشف على قواي العقلية.. فقرروا في نهاية الأمر أنني لست مجنوناً.. ولكنني أنا أعلم، أعلم أني مجنون".

وشرع تولستوي يكتب، فلقيت كتبه إقبالاً منقطع النظير. وتدفق الربح عليه مدراراً، حتى أصبح خدم قصره في "إياسنايا بوليانا" يرتدون زياً خاصاً، مثلهم كمثل الخدم في قصور الحكام وكبار الأثرياء، وكان ذلك بحسب أمر الكونتيسة زوجه ومشيئتها. واستقر "تولستوي" وأفراد أسرته جميعاً في رغد وسعة: وكان "تولستوي" يرى أن ذلك لا يعدو أن يكون صورة أخرى من صور الخضوع لما جرى به العرف وتواضع عليه الناس. وحان الوقت (ويحدده هو في "الاعترافات" في غضون عام ١٨٧٥) الذي صارت خواطره كلها، وتصرفاته كلها، تبدو فيه كأنها تسوقه إلى الهاوية نفسها، إلى السؤال نفسه: وماذا بعد ذلك؟ ... وماذا بعد ذلك؟

ولقد كتب "تولستوي"[*] في ذلك يقول: "إن ما حدث لي هو ما يحدث في العادة لشخص ما وقع فريسة مرض مميت أصابه في قرارة نفسه، ظهرت عليه بادئ ذي بدء أعراض المرض، لكنها كانت يسيرة فلم يلق إليها بالاً؛ ثم توالى ظهور تلك الأعراض في فترات ازدادت اقتراباً، حتى استحالت إلى نوبات عذاب دائبة متصلة. وازداد العذاب حدة، وفي طرفة عين اكتشف المريض أن ما كان يظنه وعكة خفيفة، إنما هو في الواقع أشد الأشياء خطراً في هذه الحياة: إنه الموت".

ولقد كان "تولستوي" يرى أنه لا بد لهذا السؤال من إجابة، ولكنه عبثاً حاول أن يجد الجواب؛ فغدت الحياة في نظره أمراً لا يطاق، وبرم بحياته حتى بلغ به الأمر حداً اضطر معه إلى إخفاء الحبل الذي قد يخطر له أن يشنق به نفسه! وإلى أنه لم يعد يجسر على الخروج للصيد ببندقيته!

وكان يقول لنفسه: "إن حياتي ليست إلا مهزلة حمقاء قاسية يدبرها لي كائن ما ..."

"وفي اليوم أو الغد، سيحل المرض، وسيحل الموت (كما سبق أن حلا) بمن أحب، أو بي، ولن يبقى إلا العفن والدود؛ ومؤلفاتي – مهما بلغت قيمتها – سيطويها النسيان إن عاجلاً أو آجلاً؛ أما أنا، فلن يبقى لي أثر أو ذكرى< وإذن، فعلام القلق؟ وكيف يستطيع المرء أن يعيش

[*] كتاب "الاعترافات" ص ٢٢.

مغضياً عن هذه الحقيقة؟ إن ذلكن هو ما يثير العجب! إن العيش ليس مستطاعاً إلا عندما تسكرنا الحياة، ولكن عندما يتلاشى هذا السكر، لا يسعنا ساعتئذ إلا الاعتراف بأن الأمر كله لا يعدو أن يكون مغالطة، بل مغالطة حمقاء!"

و"تولستوي" يقص علينا في "اعترافاته" الحقيقة التي يبحث عنها وعن آلامه في هذه السبيل؛ وقل أن نجد إنساناً أحس بلغز الوجود وسر الحياة إحساساً قوياً عميقاً مثله؛ فقد كانت دراسته للحياة فيضاً من مشاعره وآلامه؛ أما عقيدته فلم تكن في يوم من الأيام إلا وليدة العادة، والسير على ما جرى به العرف واقتضه آداب السلوك بين الناس، ولم تكن عقيدته هي الدافعة له على التفكير، بل كانت تأملاته ثمرة حياته نفسها، تلك الحياة التي سيطرت عليها أحاسيس ومشاعر لا حول له بها ولا قوة، ولا تمت إلى قراءاته إلا بمقدار لا يكاد يذكر؛ ذلك لأن "تولستوي" لم ينظر في الأناجيل، ولا في كتب "أفلاطون" و"بوذا" و"شوبنهور" إلا بحثاً وراء عقيدة، نستطيع أن نقول: إن حاجته إليها كانت حاجة "عضوية"، تتيح له متابعة الحياة والتحرر من الموت. وليس ثم ما يدعو إلى تتبع استدلالات "تولستوي" واستنتاجاته اللاهوتية كلها؛ لأنها أيضاً لا تعدو إلا أن تكون سمات وآثاراً للشكوك والمخاوف المتخلفة في نفسه، كما أن عودته إلى حظيرة الدين فترة ما مضت من حياته، وتأديته لطقوس المذهب الأرثوذكسي وشعائره، لم تكونا إلا نتيجة خطأ وقع فيه؛ إذ ظن أن ذلك قد يعيد إليه ما كان ينشده من هدوء النفس واطمئنانها؛ ولقد كتب "تولستوي" في صفحة من صفحات

"يومياته" هذه العبارة: "إن الله هو رغبتي"؛ فسأله "ما كسيم جوركي"، وكان "تولستوي" قد أطلعه عليها، عما يعنيه من هذه العبارة؛ فأجابه وهو يتأمل الصفحة بعينين نصف مغمضتين:

"إنها فكرة لم تكتمل؛ لعلني أردت أن أقول: إن الله هو رغبتي في أن أعرفه ... لا، بل لعلني لم أكن أريد أن أقول هذا أيضاً". وضحك "تولستوي".

وانتهى "جوركي" من ذلك بأن قال: "إن علاقته (أي تولستوي) بربه يسودها الارتباك؛ حتى إنها تذكرني أحياناً بعلاقة اثنين من الدببة يقيمان في عرين واحد!".

لقد كان من الضروري أن تكون لتولستوي عقيدة خاصة به وحده، نابعة من تفكيره هو دون سواه؛ وكان يقول: "إن الذين لا يفكرون في الموت يعيشون مسلوبي العقل؛ لأن الموت يحتم علينا إما أن نزهد في الحياة بمحض إرادتنا، وإما أن نغير طريقة حياتنا بحيث نضفي عليها معنى لا يستطيع الموت أن يسلبها إياه؛ وعندئذ آمن "تولستوي" "بالبشرية"، "بهذه المليارات من الآدميين، من الذين يعيشون اليوم، أو عاشوا فيما، مضى"، اهتدى إلي إيمانه هذا غير آبه باستدلالات العلماء والسوفسطائيين ولا باستنتاجاتهم المنطقية كلها. ويعقب "تولستوي" على ذلك بقوله: "إن الإيمان هو قوة الحياة، ومحال أن يعيش امرؤ بغير إيمان، وقد نشأت العقائد الدينية منذ بزوغ الفكر الإنساني في الماضي

السحيق؛ وإن ما قدمه الدين من تفسيرات تميط لنا اللثام عن مكنون الحياة، وتكشف عن أسرارها المغلقة، تتجلى فيه أعمق حكمة بشرية". ومنذ ذلك الحين، أراد "تولستوي" أن يؤمن بعقيدة كتلك التي يؤمن بها الفقراء من أجراء الفلاحين في بلاده، وكان يعبر عنهم بقوله: "إنهم عرفوا كيف يقفون أمام الموت في صبر وشجاعة".

ولكن الأمر لم يكن بهذا اليسر ولا بهذه السهولة، ركل ما هنالك أن العذاب اتخذ مظهراً مغايراً؛ فإن "تولستوي" ما كان ليرضى بأن ينظر إلى عقديته هو مثلما ينظر الكثيرون إلى عقيدتهم: على انها مجرد سلوان أبيقوري لاستساغة الحياة واحتمالها. والواقع أن "تولستوي" كانت له أكثر من شخصية تتنازعه، كما كانت تقرر زوجه "سونيا". أما رأيي أنا، فإني أعتقد أن "تولستوي" لم يحس قط بطمأنينة تامة في ظل إيمانه وعقيدته، وعلى أية حال، لم يكن في وسعه إلا أن يكون بعيد الإلحاد؛ إذ كان لا بد له، وهو يحيا وفقاً لربه هو وشريعته هو، أن يوفق بين حياته وفكره، وإن أدى ذلك إلى نشوب صراع لا هوادة فيه بينه وبين أسرته، وزوجه، وأولاده، بل بينه وبين السلطات جميعها في بلده، فضلاً عن كل ما يمثل العرف والأصول، والمظاهر والرسميات في العالم قاطبة؛ فالنار في نظره "ليست ناراً إلا عندما تكون مشتعلة".

ومنذ ذلك الحين، عقد "تولستوي" العزم على أن يحيا "في ظل ذلك النور الذي في نفسه، والذي سيحمله عالياً أمام البشر ليروه أجمعين".

وكانت هذه هي آخر مراحل التطور في حياته، ولقد قال في ذلك: إني حين أتوق، كما أفعل في هذه اللحظة، إلى ما في نفسي من سمو وصفاء رباني، أحقق بطريق أكثر يقيناً وأكثر دقة، الخير لنفسي، والخير للجماعة، أحققهما في تؤدة، ودون أن تشوبني ريبة، أحققهما وانا بمتهج رضي النفس".

ولم يكف "تولستوي" لحظة عن السعي لبلوغ هذه الغاية الروحانية، وظل يعمل على تحقيقها حتى وافاه الأجل.

ولقد كتب "تولستوي" الكثير عن الموت، ووصفه في مشاهد رآها حقاً، وأخرى صورها له خياله: فلقد شاهد موت الجنود الذين كانوا يتساقطون صرعى في القوقاز وفي شبه جزيرة القرم، وعاصر الكثير من تلك المغامرات المجهولة المباغتة التي كان يروح ضحيتها أولئك الرجال الذين يقدمون "طعاماً" للحرب؛ ولقد وصف في كتابه المسمى "طفولة"، وهو أول كتاب له، أم البطل وهي على فراش الموت (ولعله كان يتمثل عند كتابة هذا الفصل، ذكرت موت أمه هو)؛ كما وصف موت أخيه "متينكا"، وكذلك أيضاً وصفه لمشهد من أبشع مشاهد الموت وأقصاها، مشهد تنفيذ قوبة الإعدام في مجرم شهده أحد ميادين باريس، وكان الرجل على حد تعبيره "عريض الصدر، غليظ الرقبة".

وهناك أيضاً تلك "الميتات الثلاث"، وهي مجموعة من الأقاصيص أصدرها في عام ١٨٤٩، ويروي في الأولى كيف ماتت امرأة شابة غنية،

ميتة يائسة متمردة؛ وفي الثانية كيف مات سائق عربة فقير، ميتة متواضعة مستسلمة؛ وفي الأخيرة كيف ماتت شجرة قطعت ليصنع منها صليب، ميتة سعيدة لا شعورية، كما كانت هنالك ميتة أخيه الآخر "نيكولينكا" الذي يسأل قبل أن تفيض روحه: "ما هذا؟" ثم في عام ١٨٦١، ميتة "خولستومييه"، ذلك الجواد الخصي الأشهب الذي لم يجاره جواد في حداثة سنه، ثم أبحت حاله تدعو إلى الرثاء والرحمة عندما كبر وأدركته الشيخوخة؛ وكذلك ميتة صاحبه الأمير "سيربوكوفسكي" الذي كان يثير السخرية والضحك بحذائه اللامع ذي الرقبة العالية.

وقد وصف "تولستوي" في قصصه الكبيرة ميتات أخرى كثيرة، كميتة الكونت "بيزوخوف" التي امتزجت فيها الأبهة والعظمة بالضعة والشح، وميتة الأميرة الصغيرة التي دهشت بما حدث لها وبدت كأنها لا تصدقه، وميتات الأمير "أندريه" ثم "كاراتاييف" و"أنا كارينينا". وقد أحس "تولستوي" أكثر من مرة أن الموت هو "أعظم مراسم هذه الدنيا وشعائرها جلالاً مهابة".

هذا، ولقد اتخذ "تولستوي" من الموت وحده موضوعاً لأحد كتبه، وكأننا به قد أراد أن يستبقيه تحت نظراته الفاحصة الممحصة أطول مدة ممكنة حتى يتسنى له أن يقف على خبيئته، ويقرر بصورة قاطعة، ورأي حاسم، ماهيته؛ فكتب تلك الرواية التي أسماها "ميتة إيفان إليتش".

وربما كانت هذه الرواية من أعظم ما جادت به قرائح الكتاب قاطبة؛ فليس هناك من يستطيع قراءتها من غير أن تتحرك كوامنه، ويحس من آن إلى آخر أن شخصية البطل قد تقمصته، فيموت معه؛ ذلك أن "تولستوي" لم يكتب هذه القصة إلا ليفرض على نفسه تحمل هذه التجربة بعينها، فيتم له بذلك التحرر من الموت والخلاص من وطأته؛ ومن المؤكد أن "تولستوي" كتبها وهو في حال رهيبة من التوتر العصبي.

وإذا كان "تولستوي" قد جنح أحياناً كثيرة، في الفترة من سنة ١٨٨٤م إلى سنة ١٨٨٦م للوقوف موقف الواعظ المرشد، فإنه في هذه الرواية لم يهدف إلى أية غاية، ولم يحاول أن يلقي أية عظة، فلم يقصد خلالها إلا أن يلقننا درساً في مجابهة الموت واستقباله، كما فعل بعد مضي اثنى عشر عاماً في قصة أخرى أسماها "السيد والخادم"، وهي رواية رائعة، ما في ذلك شك، غير أنها لم تخل من بعض الحذلقة والتفيهق.

والحق أن قراءة قصة "ميتة إيفان إليتش" تتيح لنا أكثر من غيرها من مؤلفات "تولستوي" أن نقف على ماهية الموت فنفهمها فهماً صحيحاً صادقاً. وغن التحول الذي قد تحدثه قراءتها في نفوسنا، ليس مرده إلى وعظ يوجهه إلينا "تولستوي"، وغنما إلى موضوعية تصويره، وإن كانت هذه الموضوعية سطحية لا غير؛ وكذلك لأنه لا يسعنا ونحن نتطلع إلى الموت في هذه الفترة الطويلة، وبمثل هذه النظرية الفاحصة المتعمقة – إلا أن تعتمل في نفوسنا مشاعر وأحاسيس غريبة لم نعهدها

من قبل. وإن كان إيمان "تولستوي" يحور صورة الموت بعض التحوير، ويحدد معالمها بحسب ما يتراءى له، فإن "تولستوي" نفسه لم يكن يقصد ذلك، وإنما جنح إليه بدافع من عقديته التي ملكت عليه مشاعره وتفكيره. وحري بالقارئ ألا يضع ذلك موضع الاعتبار؛ فإن "تولستوي" الذي كان، في ذلك الحين، ينشد لنفسه الطمأنينة والخلاص أكثر من أي وقت مضى، لم يشأ أن ينظر إلا إلى الحقيقة المجرد، فيتحدث عنها دون سواها.

والصفحات الأولى في هذه الرواية تحمل إلينا النبأ، فتقول: "لقد مات إيفان إليتش"؛ ثم تصف الاضطراب الذي اثاره هذا الحدث في جمع صغير من الأحياء من زملاء الميت وأصدقائه الذين كانوا يضيقون بزيارته بعض الضيق بسبب تعطل مصالحهم، وفي الوقت نفسه يخالجهم إحساس مبهم بالقلق على مصايرهم. وتظهر تفاهة هؤلاء الأحياء وصغر نفسيتهم فيما يبدو منهم من دناءة وغرور وكذب وطيش، فضلاً عن حرصهم على اتباع التقاليد المتعارف عليها "والرسميات" المعتادة والظهور "كما يجب".

وخلاصة القول أنهم أحياء من طراز "إيفان إليتش" نفسه، قبل أن تبدأ قصته، وقبل أن يسير نحو الموت بخطى وئيدة محتومة، ولكن ماذا عسى أن يكون الموت قد فعل بإيفان إليتش؟

إن القصة تتبع في نسقها طريقاً سوياً لا تعقيد فيه؛ فهي تبدأ هكذا: "إن قصة إيفان إليتش كانت من أكثر القصص "بساطة"، وأكثرها شيوعاً، وأكثرها فظاعة". وغننا لنشعر منذ اللحظة الأولى أنها تخص كل فرد منا؛ فلقد كان "إيفان إليتش" إنساناً عادياً ليس فيه ما يميزه عن غيره من الناس؛ كان رجلاً متوسط الحال، يتبع التقاليد المتعارف عليها، ويحرص على أن يظهر "كنا يجب" وأن يلتزم حداً معيناً في الفضيلة أو الرذيلة على السواء، وكان دائماً يصبو إلى أن "يعيش عيشة رغداً سعيدة، تتفق مع التقاليد المتعارف عليها". وهاتان العبارتان: "التقاليد المتعارف عليها"، و"الظهور كما يجب"، نراهما تتكرران في كل فقرة من فقرات القصة؛ فقد كانت حياة "إيفان إليتش" أكثر ما تكون التزاماً للعرف والتقاليد، ومطابقة لحياة سائر الناس، حتى إننا لا نجد مشقة في أن نرى فيها انعكاساً لحياتنا.

وتبدأ الرواية كذلك بحادث عادي جداً: فلقد رقى "إيفان إليتش" في عمله؛ وبذلك استطاع أن يستأجر مسكناً أنيقاً، ولكنه يأبى إلا أن تكون له أستار يعلقها على نوافذ مسكنه الجديد، فيرتقي سلماً، ثم تزل به القدم، فيسقط إلى الأرض (كما سقط تولستوي نفسه في يوم ما عن صهوة جواده؛ واستبد به خوف شديد ظل يشعر به طوال الأسابيع التي تلت ذلك الحادث)؛ ولكن "إيفان إليتش" إذ يسقط يستطيع حين ذلك أن يسترد يحس ألماً طفيفاً ..."، لكن الموت قد دخل، وسيمضي في عمله حتى النهاية. ولقد عاش "إيفان إليتش" قبل ذلك كما يعيش أي فرد من الناس وفقاً "للتقاليد والأصول المتعارف عليها" إلا أن الموت ليست

له تقاليد ولا أصول متعارف عليها؛ فلكل إنسان ميتة خاصة به دون غيره من الناس.

ويمضي "تولستوي" متتبعاً تغلغل الموت في جسم "إيفان إليتش" وسريانه في روحه، يوماً بعد يوم، دون أن يكون هناك سبيل إلى وقف تقدمه، وسرعان ما يحين الوقت الذي يتحتم فيه على "إليتش" الاعتراف بأن ما حل به إنما هو الموت، وأن عليه أن يقر له بالغلبة، ولكنه يستمر في كفاحه ونضاله، وهنا تبلغ الرواية من عمق التحليل وحدة التوتر ما لا تحتمله الطاقة البشرية.

وفي نهاية الأمر يتحرر "إيفان إليتش" من قيود العرف والتقاليد، وتتبدل شخصيته، فتغدو مطابقة لشخصيته الحقيقية دون زيف، ويصير "إيفان إليتش" هو "إيفان إليتش" الحق؛ والناس من حوله ما يزالون يكذبون بدافع احترام "التقاليد والأصول المتعارف عليها"، ولكن "إليتش" يصبح من ناحيته مبغضاً للكذب بجميع أنواعه؛ وأخيراً تتكشف له الحقيقة: وهي انه لم يحظ من الحياة بما كان حرياً أن يحظى به؛ فقد بين له الموت نفسه أن هنالك لوناً آخر من الحياة.

وإنني لأجسر فأقرر أن الصفحة الأخيرة في هذا الكتاب الرائع هي أقل صفحاته تأثيراً في نفسي وتحريكاً لكوامني؛ فلا ريب أن "تولستوي" كان موفقاً حين أسند إلى بطل قصته ذلك السؤال الذي ألقاه أخوه "نيكولينكا" على فراش الموت، وهو: "ما هذا؟"؛ غير أنه أراد أن يجيب

عن السؤال، ولعل جوابه لا يعدو أن يكون كلاماً فحسب. وحين نبلغ هذا الحد من الرواية، فإن "تولستوي" يخاطبنا بدافع من إيمانه وحده، فيقول: "لقد انتهى الموت! لم يعد له وجود!"؛ فلقد تراءى لتولستوي أنه اهتدى هو أيضاً إلى خلاص نفسه وتحررها.

غير أن عذاب "تولستوي" لم ينته في هذه المرة أيضاً؛ وكل ما هنالك أنه اتخذ شكلاً آخر؛ ويحق لنا أن نشك فيما لو كان "تولستوي" قد حس حقاً بما كان ينشده من تحرر وخلاص، قبل أن يوافيه الأجل في المحطة الصغيرة القائمة ببلدة "آستابوفو" وهو حين يكتب: "لقد انتهى الموت!"؛ فإن الموت لم يك في الحقيقة قد انتهى بالنسبة إليه؛ إذ أنه ظل مشغولاً به طيلة خمسة وعشرين عاماً أخرى، ولم يزل يزنُ به الحياة، وكأنما هو نبي من الأنبياء الذين ذكرتهم التوارة، أو كانه أيوب آخر عقد العزم على إفناء نزوات الإنسان كلها، والقضاء على الفن والعلم والحب، حتى إن "باسكال" نفسه لم يبلغ في ازدرائه لمقومات الحياة هذه الدرجة التي وصل إليها "تولستوي"؛ فلقد عمد "تولستوي" إلى الفن والعلم والحب، وهي المعاني التي سمت به وخلقت منه إنساناً فذاً عظيماً، فاعتبرها أوهاماً ومظاهر خادعة، وأنكرها الواحدة تلو الأخرى.

غير أن عنف طباعه وحدة مزاجه، دفعاً به إلى حياة جديدة لا يقل طابعها قوة عن طابع حياته الأولى وجبروتها؛ فمنذ ذلك الوقت، يكتب "تولستوي" ولكن لمهاجمة الذين يكتبون كلهم؛ وقام يبشر الناس وينشر عليهم ثمرات تأملاته في الحياة؛ حتى غدا قصره في "إياسنايا بوليانا"،

بالنسبة على أوروبا، كعبة يؤمها القاصدون؛ ولكن الكذب والزيف اللذين طردهما "تولستوي" من الباب، عادا فدخلا إليه من النافذة؛ ذلك لأن "تولستوي" الذي أراد لنفسه أن يعيش عيشة الفقراء "المغمورين، فشارك عبيد الأرض في أشق أعمالهم، كما عمل إسكافياً، أصبح العالم كله ينظر إليه نظرته إلى نبي مرسل.

كان "تولستوي" يجيل النظر فيما حواليه، فلا يبصر إلا مجتمعاً يتضور جوعاً، ويقاسي أمر ألوان الأسى والحرمان، فلا يتمالك نفسه من الإحساس بالحسرة والألم، والشعور بالخجل، فقام وسط حطام ذلك العهد المظلم، كما فعل "تشير نشفزسكي" من قبله ثم "لينين" من بعده، يوجه إلى نبي البشر سؤالاً من أخطر الأسئلة شأناً: "ما الذي يجب علينا أن نفعله؟"

ولقد استطاع هذا الرجل الذي تبرأت منه الكنيسة ولفظته، أن يعيد إلى القيم المسيحية معناها الحق في نفوس عدد كبير لا يحصيه العد ممن قرءوا له، وإن كان هو نفسه قد عجز عن أن يجد في هذه القيم ما يكفل لنفسه الهدوء، ولروحه الطمأنينة.

كانت تمر بتولستوي لحظات يشتد فيها برمه وضيقه بنفسه، فلا يطيق احتمالها. وكان يرى، بسبب ما حباه الله من جاه وثراء، وبما أضفته عليه أعماله من مجد وشهرة، أن حياته كلها كذب ورياء؛ ويحس عند ذلك أن الموت قد سرى في روحه.

ما الموت؟ ماذا عسى أن يكون؟ لقد كانت كتاباته ونظراته فيما يتعلق "بالحياة الأخرى" مبهمة تعوزها الدقة؛ فلقد قصر فكره عن أن يتمثل ما وراء المادة في جلاء ووضوح؛ ذلك لأن عقله لم تتوافر له تلك الخصاص والمميزات الواجب توافرها في عقل "ميتافيزيقي"؛ فخلال ليلة "آرزاماس" التي أشرنا إليها، اتضح لتولستوي بصورة قاطعة أن الخوف من الموت لم يكن بالنسبة إليه خوفاً من الموت نفسه، ولا مما قد يجيء بعده، ولكن مما عبر عنه بقوله: "إن موت الحياة هو أشد ما نخشاه".

غير أنه يبدو أن "تولستوي" بذل في تلك الثلاثين سنة الأخيرة جهداً متزايداً ليحمل نفسه على الاقتناع بأنه "لا طائل من الحياة الشخصية"؛ ذلك لأنه لما كان كل ما يتعلق بالفرد، وكل ما يتعلق بخاصياتنا التافهة، مقضي عليه – لا محالة – بالفناء، فإنه حري بهذه الحقيقة الرهيبة، حقيقة الموت، أن تكون ميزاناً توزن به حياتنا، وأن يتجه كل منا، بمحض إرادته، إلى الوجود الكلي، الوجود الحق الذي لا حق غيره، الذي هو الله، فيتصل به.

ولقد كتب "تولستوي" يقول: "ماذا عسى أن أكون؟ ولم كنت؟ لقد آن لنا أن نفيق، أي أن نموت، إن المادة والفراغ، والزمن والحركة، كلها تباعد بين، كما تباعد بين أي كائن حي، والإله الأكبر ...

الشخصية: تلكم هي ما تحول بين روحي واندماجها بالكل الأعظم. الجسم: ما جدواه؟ وما جدوى الفراغ، والزمن، والسببية؟".

أما من ناحيتي، فإني أحس عجزي ن تتبع "تولستوي" في هذه التأملات اليائسة حتى نهايتها؛ ولكن ذلك ليس بذي أهمية؛ لأن كلاً منا يحس إحساساً قوياً ما يخصه من هذه النظرات والتأملات، في اللحظة التي يبدي فيها اعتراضه على آراء "تولستوي"، ويصم دونها أذنيه.

وفي قصة من قصصه الأخيرة، يلقى "تولستوي" هذا السؤال: "هل الإنسان في حاجة إلى رقعة واسعة من الأرض؟"، ولكن "تشيكوف" الذي أثارته هذه اللهجة التي سادها اليأس والقنوط، يجيب قائلاً: " ها كم رواية جديرة بالإعجاب: هل الإنسان في حاجة إلى رقعة واسعة من الأرض؟ إنها رواية بلغت قدراً من الجمال والروعة إل حد أنه لن يظهر في ألف السنة المقبل رواية أفضل منها. وماذا يقول "تولستوي" فيها؟ إنه يقول: إن الإنسان يكفيه من الأرض متران فقط؛ يا له من سخف! إن الإنسان يحتاج إل الأرض بأسرها، لا إلى مترين فحسب، وهذان المتران، سيكتفي بهما الموتى؛ أما الأحياء فليسوا في حاجة إلى أن يلقوا إليهما بالاً!".

ولكننا في الواقع نفكر في هذين المترين! وما من شك في أن المرء لا يسعه أن يحس بمثل ما أحس به "تولستوي" من قلق وخوف من الموت، من غير أن ينظر إلى الحياة النظرة الجدية الواجبة.

غير أننا نقف هنا بإزاء المذاهب الفكرية المتناقضة، والآراء المتباينة البعيدة المدى؛ فإن ما يعانيه الناس من القلق والخوف من

الموت، يستحثهم على مشايعة أحد رأيين متضادين، ينادي أولهما بالاستكانة والاستسلام، وينادي الآخر بالتمرد والعصيان.

هذا، ولا يمنع ذلك من أن الفكر الواحد في مقدوره أن ينتقل من حال معنوية إلى أخرى بحسب ما يعتريه من اختلاف في المزاج بين الفينة والفينة. وإذا نظرنا إلى "تولستوي" في آخر سني حياته، فسنرى من الدلائل ما يظهره لنا بمظهر المستسلم المستكين للموت، وقد انتهى به ذلك الاستسلام إلى حد أنه أمات فيه الرغبة في الحياة، وفي مباشرة أي وجه من أوجه النشاط، أو الفن، أو العلم، أو المظاهر الإنسانية الكاذبة، بل أمات فيه الرغبة في الحب نفسه، وفي كل ما يتخذه الإنسان من وسائل الظروف والحيلة والترفيه؛ ليجابه في شجاعة القدر المحتوم، وليعلي به منزلته، فيرتقي عن حاله الأولى؛ وهنا نجد أنفسنا أمام إحدى سقطات "تولستوي" ومزاله الفكرية.

وأخيراً وصل به الأمر إلى درجة أنه كان يعجب من أن الناس يهتمون بأجسامهم، فيغسلونها أحياناً كثيرة. وذات يوم، أسر إلى "جوركي" بهذا القول: "أي حقيقة من بين هذه الحقائق يمكن أن توجد، إذا كان لا بد من الموت؟"؛ ويعترف "جوركي" بأن: "هذا الميل إلى هدم القيم الإنسانية وإزالتها Nihilisme، كان يوقظ فيه (أي في"تولستوي") شعوراً قريباً إلى الحقد والكراهية".

ولكن لحسن الحظ، كان هذا "العملاق" مليئاً بالمتناقضات، ومن الخير لنا أن نتتبعه حين يكتب، فيقول: "إن الإيمان هو قوة الحياة، ومحال أن يعيش امرؤ بغير إيمان". ثم حين يعرف هذا الإيمان بأنه: "ليس معرفة الحقيقة، وإنما هو الإخلاص للحقيقة". وإن هذا "الإخلاص" هو الذي أمده بالقوة لكي يعيش؛ فقد كان لتولستوي ميل عنيف إلى العدل، وكان عنده حرص شديد على كل ما هو حق؛ وذلك ما كان يدفعه إلى الاسترسال مع نفسه إلى أقصى ما يمكنه الاسترسال إليه من أجل أية حقيقة يرتئيها؛ وكم كان يغضبه أن يميز الناس في نفاق ورياء بين ما هو نظري وبين ما هو عملي؛ فإن الإنسان الحق في نظره، يعيش على النهج الذي يفكر به؛ وكان يرى أن الحقيقة كالسيف، لا يمكن أن يكون حده كليلاً أو واهناً، فيقول: إن النصال يجب أن تكون حادة فتقطع.

وكان يرى أن الحقيقة، أي حقيقة الموت الواقعية، تحمل في ثناياها شيئاً هو أشبه شيء بقدرة إيحائية تكشف الغطاء عن كل ما تنطوي عليه "التقاليد المتعارف عليها"، والظهور "كما يجب"، و"الرسميات" المعتادة؛ من كذب وخداع.

وفي عام ١٨٨٧، قرأ طالب علم شاب يسمى "رومان رولان"* كتاب "ميتة إيفان إليتش" لتولستوي، فكتب إليه يسأله التوجيه والإرشاد؛ وهذا الرد الذي بعث به إليه "تولستوي" ما يزال حتى يومنا هذا يعتبر

---

*رومان رولان: كاتب ومفكر فرنسي من سنة (١٨٦٦ – ١٩٤٤) نال جائزة نوبل للأدب عام ١٩١٦.

أروع نص يستوعب في إيجاز عقيدة ذلك الكاتب الفذ وإيمانه، إذ كتب يقول:

"إن ما نسميه في عالمنا علوماً وفنوناً ليس في الحقيقة إلا خدعة هائلة أو خرافة كبيرة، نقع فيها عادة عقب أن نتحرر من خرافات الكنيسة ومعتقداتها البالية مباشرة ... إننا في حاجة إلى قدر عظيم من الصدق وحب للحقيقة لنضع المبادئ التي تكفل لنا النفع والفائدة، موضع الشك والريبة، ولكن إنساناً جاداً رزيناً مثلك يسأل نفسه عن سر الحياة، مضطر ليس له أن يختار؛ فلكي يتاح للمرء أن ينظر إلى الحقيقة نظرة صحيحة صادقة، يتحتم عليه أولاً أن يتحرر من تأثير الخرافات التي تسيطر على فكره، مهما حققت له هذه الأوهام من منافع، وأسدت إليه من فوائد؛ إن هناك شرطاً من منافع، وأشدت إليه من فوائد؛ إن هناك شرطاً لازماً لا غنى عنه .. هو أن ينفض الإنسان عن نفسه الخرافات والأوهام العالقة به، وأن يقف في موقف طفل قد ولد لساعته، في موقف "ديكارت" Descartes آخر".

ذلكم هو الطريق الذي نستطيع أن نترسم فيه دائماً خطى "تولستوي" ونظرته إلى الحياة.

بقلم : جان جيهينو

ترجمة : محمد خليل فهمي

الفصل الأول

في صالون آنا بافلوفنا

- ما رأيك الآن وقد خضعت جنوة لعائلة بونابرت؟ أما زلت تعتقد أننا سوف لا نحارب؟ أما زلت تلتمس الأعذار لأعمال العنف يقترفها هذا الفوضوي العدمي الكافر بالله وكتبه؟ إني أنذرك أن لم تعترف بخطئك. إني سأكف على الفور عن صداقتك!... ولكنني أراك فزعت مني ومن وعيدي... فهيا اجلس.

على هذا النحو استقبلت آنا بافلوفنا شيرر، وصيفة الشرف وصديقة حميمة للإمبراطورة، الأمير فاسيلي، الذي كان أول من حضر إلى صالونها لقضاء السهرة، وذلك في ليلة من ليالي شهر يوليه سنة ١٨٠٥ فقال الأمير ووجهه الباسم لا يدل على اضطراب ذي بال:

- يا لك من عنيفة قاسية!

وقبل يد آنا بافلوفنا ثم جلس بهدوء وراح يسألها عن حالها وصحتها، بلهجة تجمع في براعة بين التهذيب وعدم الاكتراث! فأجابته:

- وكيف يمكن أن تكون للإنسان صحة طيبة في مثل هذا العصر، أن كانت لديه حساسية؟ أنك ستقضي السهرة كلها هنا فيما أعتقد.

– بل ستأتي ابنتي لتأخذني ، لأني يجب أن أظهر الليلة في حفلة السفارة الإنجليزية.

– كنت أظن أن تلك الحفلة تأجلت. فليس هذا بالوقت المناسب مطلقاً...

– كانوا يؤجلونها بلا شك لو أنهم علموا بوجهة نظرك وشعورك.

– إذن خبرني بسرعة ماذا تقرر على أثر وصول برقية سفيرنا في لندن؟

فأجاب الأمير بلهجة تدل على ضيق الصدر:

– يا النى! ما دام بونابرت أحرق مراكبه فسنحذو حذوه.

وكان الأمير يتعمد الكلام عن الموقف السياسي بلهجة عدم الاهتمام وعدم المبالاة فتزداد آنا بافلوفنا تحمساً في تقليب السياسة الأوربية على وجوهها، في اندفاع يدل على تضلعها وشدة حيويتها...

– لا تحدثني عن النمسا! فلست أطيق ذكرها! النمسا خانتنا! النمسا لا تريد الحرب لن ينقذ أوربا إلا الروسيا! إن إمبراطورنا الصالح الفاضل التقى هو الكفيل بالنهوض بهذه الأمانة. وسيسحق الثورة الفرنسية التي أصبحت ممثلة في شخص ذلك اللص قاطع الطريق بونابرت!. إننا لا نستطيع أن نعتمد على أحد. فالإنجليز قوم من التجار. وروحهم التجارية لا تيسر لهم فهم الروح السامية التي

يصدر عنها قيصرنا. فهو لا يريد شيئاً لنفسه. ولا مطمح له إلا السلام العالمي. ولهذا سوف لا يفي الإنجليز بوعودهم الغامضة المائعة. أما بروسيا. فهي مؤمنة أن بونابرت شخص لا يمكن التغلب عليه. ولهذا ستبقى على الحياد. وأعيد عليك القول مرة أخرى أن الله وحده هو الذي سيساعد قيصرنا على إنقاذ أوربا.

فأجاب فاسيلي باسما:

- أني أعتقد أنهم لو عينوك سفيرة لدى ملك بروسيا لاستطعت أن تحمليه على التدخل لمصلحتنا.. ولكن...

وتغيرت لهجته فصار يتكلم كمن لا يهتم مطلقاً بالموضوع مع أنه لم يحضر الليلة لدى آنا بافلوفنا إلا ليلقى عليها ذلك السؤال الذي يتظاهر بعدم أهميته.

- ولكن... ألا تتجه رغبة الإمبراطورة إلى تعيين البارون نونكه سكرتيراً أول لسفارتنا في فينا؟ أنه شخصية غاية في التفاهة.

وكانت آنا تعلم أن فاسيلي يطمع في الحصول على تلك الوظيفة لابنه. ولهذا اكتفت آنا بأن قالت له أن البارون "نونكه" حصل على تزكية لدى الإمبراطورة الوالدة من شقيقة الإمبراطور... ثم طرقت موضوعاً آخر للحديث قائلة:

- وعلى فكرة! ينبغي أن تكون فخوراً بابنتك، فهي رائعة الجمال، وقد أدارت رؤوس جميع رجال البلاط القيصري.

فانحنى لها الأمير باحترام وامتنان. واستطردت آنا بلوفلوفنا بابتسامة تفيض طيبة:

- أن القدر له تصرفات غريبة حقاً. لماذا رزقتك السماء طفلين كاملين حقاًً من بين أولادك الثلاثة؟ إني أصارحك أن ابنك أناتول لا يروقني، أما ابنك الأكبر وابنتك فهما آيتان حقا.

فهز الأمير فاسيلي كتفيه وقال:

- وماذا تريدنني أن أصنع به لقد فعلت كل شيء في مقدوري لتربية هذين الوالدين ولكن لا خير فيهما. فالأكبر "إيبوليت" هادئ أكثر مما ينبغي. والأصغر أناتول مندفع طائش. وكلاهما أبله! هذه قسمتي ويجب أن أذعن لها!

- ولماذا لا تحاول أن تزوج أناتول؟ أني أعرف شابة هي الأميرة "ماري بولكونسكا" التي تقاسي كثيراً من سوء معاملة أبيها.

- أن أناتول هذا يكلفني يا عزيزتي أربعين ألف روبل في السنة! وإذا استمر على هذا المنوال من الإسراف وسوء السلوك، فالأم ينتهي أمره بعد بضع سنوات؟... وهل أميرتك هذه غنية؟

– أن أباها غني جداً ويعيش في الريف. أنه الأمير بولكونسكي الذي أحيل إلى التقاعد في حكم القيصر السابق، وهو مشهور بذكائه كما هو مشهور بغرابة الأطوار ووعورة الطباع، وله ابن تزوج منذ قليل ليزا ماينن.

وضغط الأمير فاسيلي على يد آنا بافلوفنا بتأثر بالغ وقال:

– يا عزيزتي آنا بافلوفنا أتمنى هذا الزواج وستجدين في شخصي أشد من العبيد الأرقاء إخلاصاً وولاء لك.

وبكل رشاقة رفع يدها إلى فمه وقبلها في امتنان فقالت:

– سأخاطب ليزا الليلة بالذات في هذا الموضوع.

وبدأ ضيوف آنا يتوافدون ومن بينهم ابنة الأمير فاسيلي التي كان جمالها الباهر فعلاً يخلب الألباب. وكذلك سيدة فاتنة هي الأميرة الشابة ليزا بولكونسكا التي تزوجت في الشتاء السابق شقيق ماري بولكونسكا وهي الآن حامل. وكانت شخصيتها الجذابة الوديعة تجعل الجميع يعطفون عليها ويميلون إليها. فكان كل واحد يبتسم عندما يراها أو يسمعها تتكلم وهي تحرك في رقة عجيبة فمها الدقيق. ذلك الفم الذي كانت شفته العليا قصيرة قليلاً. فأضافت مزيداً من الفتنة إلى ملامحها.

وقالت ليزا وهي تصافح ربة القصر:

- لقد أحضرت شغل الإبرة: ولم أتزين كما يجب، لأنك قلت لي أنها سهرة خاصة محدودة، أنظري... هذا شغل الإبرة في حقيبتي.

- إنك دائماً في منتهى الجمال.

فالتفتت ليزا نحو الأمير فاسيلي وقالت:

- أتدري أن زوجي سيفارقني ليمضي إلى الحرب؟ ما أفظع هذا! ولماذا؟

وفي هذه اللحظة استقبلت آنا بافلوفنا رجلاً طويل القامة قوي البنية اسمه "بطرس" وكانت هذه الليلة أول ليلة له في الحياة الاجتماعية، وهو ابن غير شرعي للأمير (بزوخاو) الذي جمع ثروة طائلة وكانت له مكانة رفيعة في بلاط الإمبراطورة كاترين الثانية. وهو الآن مشرف على الموت في قصره بموسكو.

ومع أن ربة القصر كانت لا تعتبر بطرس من طراز مدعويها الآخرين إلا أنها تتبعت باهتمام نظراته الذكية التي أجالها فيما حوله فلما رأى الأميرة "ليزا" ابتسم وحياها، فسألته آنا بافلوفنا هل يعرف الأب "موريو" الذي كان في تلك اللحظة محاطاً بطائفة من المدعوين فأجابها:

- أجل. أنه صاحب مشروع للسلام الدائم، وهو مشروع جميل بيد أنه خيالي. ثم أخذ يشرح لربة القصر عيوب ذلك المشروع العملية، فاستأذنت منه باسمه كي تهتم باستقبال باقي المدعوين. وراح بطرس

يتطلع حوله بذكاء وصفاء فوجد أن المدعوين انقسموا إلى ثلاث طوائف شيئاً فشيئاً. الطائفة الأولى معظمها من الرجال وتلتف حول الأب "موريو" والطائفة الثانية وهي من المعجبين بليزا، وتلتف حولها وحول الحسناء "إيلين". والطائفة الثالثة تلتف بمهاجر من النبلاء الفرنسيين يمتاز بأناقته ورشاقته وهو "الفيكونت دي مورتمار". وكان يروى أخبار البلاط الزائل في فرنسا. والكل يصغون إليه بإعجاب. وكانت ربة القصر مهتمة بهذا النبيل الفرنسي فطلبت من "إيلين" أن تنضم إلى حلقته كي يتبعها الملتقون بها.

وتقدمت إيلين بثوبها الأبيض، وكتفيها العاريتين الناصعتين كالثلج، وشعرها البديع، وماساتها الوهاجة. فأفسح الجميع لها الطريق مبهورين بحسنها. وانضمت إليها الأميرة ليزا، وكذلك الأمير "ايبوليت" شقيق "إيلين" الأكبر، وهو هادئ رزين فيه خمول وضآلة.

والتفتت آنا بافلوفنا نحو بطرس فوجدته مشتبكاً في مناقشة حادة مع الأب موريو، فخشيت أن تدفع حماسة الشاب وسذاجته إلى ارتكاب حماقة تفسد صفاء السهرة. فوقفت تحدث الأب وتسأله عن رأيه في برد الروسيا الشديد. ثم اجتذبت الاثنين إلى الحلقة الرئيسية حتى لا ينفردا.

وفي هذه اللحظة حضر الأمير "أندريه بولكونسكي" زوج ليزا، وكان وسيماً جداً بالرغم من قصر قامته كان يمشي بخطوات قصيرة ويرمق الناس حوله بنظرات مكتئبة وكان واضحاً أنه لا يشعر بأي سرور من

وجوده في تلك المجموعة التي كان يعرف من قبل جميع أفرادها. وسألته آنا بافلوفنا هل سيذهب إلى الحرب حقاً، فقال:

- إن "الجنرال كوتوزاو" يريد أن يجعلني أركان حربه.

- ألا تشعر بالخزي إذ تترك زوجتك المجرية وحدها؟!

- ستذهب إلى الريف.

وعندئذ قالت له زوجته باللهجة التي تخاطب بها الغرباء:

- يا أندريه.. الفيكونت قص علينا نادرة طريفة عن بونابرت.

فأشاح الأمير أندريه برأسه ولم يجب. فلمح بطرس الذي صافحه باسما بحرارة فانفرجت أسارير أندريه قليلاً وقال:

- ماذا؟ أأنت أيضاً تغشى المجتمع؟

- كنت أعلم أني سأجدك هنا، وسأذهب لأتعشى عندك. ممكن؟

- مستحيل!

قالها أندريه ضاحكاً وهو يضرب بيده كف بطرس ليفهمه أن سؤاله لم يكن له محل إطلاقاً.

واستأذن الأمير فاسيلي في الانصراف مع ابنته فتراجع الشابان ليفسحا لهما الطريق. ورمق بطرس "هيلين" بإعجاب شديد، فوضع الأمير فاسيلي يده على ذراعه وقال مخاطباً آنا بافلوفنا:

- أحسني تهذيب وتمدين هذا الفتى الخام. أنه يقيم في بيتي منذ أمد طويل، ومع هذا فتلك هي أول مرة يغشى فيها المجتمع. ووجوده مع السيدات ذوات الذكاء سيجدي عليه كثيراً ويكسبه اللباقة والكياسة.

وكانت آنا بافلوفنا تعلم أن بطرس يمت بالقرابة من جهة أبيه إلى الأمير فاسيلي، فوعدته أن تحوطه برعايتها وعنايتها.

الفصل الثاني

المغتصب

وفي الدهليز التقى الأمير فاسيلي بالأميرة تروبتسكايا، وكانت تنتظره هناك فاستوقفته قائلة:

- لم يعد في مقدوري الإقامة أطول مما أقمت في العاصمة. فماذا أقول لابني بوريس؟

فأظهر الأمير شيئاً من نفاذ الصبر بحركة تكاد تدل على عدم الاحترام. بيد أن الأميرة ابتسمت وسدت عليه الطريق قائلة:

- كلمة واحدة منك للإمبراطور، تكفي لتعيينه في الحرس.

- من الصعب أن أتصل بالإمبراطور، فمن الأوفق أن تخاطبي في هذا الشأن الأمير جالتزين، فيخاطب الوزير.

ففزعت الأميرة لأنها كانت فقيرة فاعتزلت المجتمع وفقدت اتصالها بالناس ولم تكن حضرت إلى قصر آنا بافلوفنا إلا لمقابلة فاسيلي. فتكلفت الابتسام وقالت:

- هذه أول مرة أطلب فيها منك شيئاً. أناشدك الله أن تتولى بوريسي بحمايتك، لأني خاطبت بالترين فرفض التوسط، فكن أنت راعية بحق العشرة القديمة.

وأغرورقت عيناها بالدموع. وكان الأمير فاسيلي لا يستخدم نفوذه في البلاط إلا قليلاً، لأنه كان يقدر أن توسطه للآخرين سيقلل من قدرته على التوسط لذويه. بيد أنه تذكر أن والد هذه الأميرة كان هو الذي بسط عليه حمايته عندما كان في أول درجات السلم. لهذا قال لها:

- أن ما تطلبينه تكاد يكون مستحيلاً ولكن من أجل ذكرى والدك. ولكي أثبت لك مودتي سأفعل كل ما في وسعي، هذا عهد.

- لم أكن أنتظر منك ومن كرم أخلاقك أقل من ذلك، فكلمة منك تكفي لتعيينه في الحرس، وستسبغ على غاية الطمأنينة والامتنان أن خاطبت الجنرال كوتوزاو كي تخذه ياورا له.

- إنك يا عزيزي لا تدركين إلى أي حد تتكاثر الطلبات على رأس القائد العام. فجميع سيدات موسكو اتفقت كلمتهن فيما يظهر على أن يختار جميع أبنائهن ياورانا!

- عدني مع هذا أن تكلمه في ذلك.

وهمست هيلين في أذن أبيها قائلة:

- هيا يا أبي حتى لا نتأخر.

واستطردت الأميرة بابتسامة تدلل لا تتفق مع وجهها المتغضن:

- عدني يا فاسيلي...

وانصرف الأمير مع ابنته، فلما بقيت وحدها تلاشت على الفور من وجهها ابتسامة التودد، واسترد محياها بروده التام، ثم دخلت الصالون وراحت تتسقط المناسبة اللائقة للانصراف. ووجدت آنا بافلوفنا تقول:

- وما رأيكم في مهزلة التتويج في ميلانو؟ وفي تلك المهزلة الأخرى التي أعلنت بها جمهورية جنوه خضوعها للمسيو بونابرت؟ هل جن جميع الناس.

فأجابها الأمير أندريه قائلاً:

- أليس بونابرت هو الذي قال: "أن الله أعطاني التاج فالويل لمن يسمه"!

فصرخت آنا بافلوفنا قائلة:

- هذه هي القطرة التي طفح بها الكأس. أن الملوك لم يعد في وسعهم احتمال تهديدات هذا الرجل!

فوجدها الفيكونت المهاجر الفرنسي فرصة ليقول:

- الملوك؟ وماذا فعلوا لحماية مليكنا وملكتنا؟ لا شيء إطلاقاً! بل توجه سفراؤهم لتهنئة هذا الغاصب بارتقاء العرش.

فقالت آنا بافلوفتا:

- إن إمبراطورنا يريد أن تختار فرنسا الحكومة التي تروقها متى تحررت من نير هذا الغاصب. وعندئذ لها أن تستعيد ملكها الشرعي.

وكانت آنا بافلوفنا تريد بهذه الكلمات أن تجامل المهاجر الفرنسي بيد أن أندريه قال:

- أظن الفيكونت يعتقد بحق أن من الصعب الرجوع إلى الماضي.

وغمغم بطرس وقد أحمر وجهه:

- لقد سمعت أن النبلاء انضموا إلى بونابرت.

فأجاب الفيكونت من غير أن ينظر إلى بطرس:

- البونابرتيون هم الذين يزعمون ذلك.

- عفواً، بل إن بونابرت نفسه هو الذي قال: "لقد عرضت عليهم المجد فرفضوه، ففتحت لهم دهاليز قصرى، فتسارعوا إلى أبوابي".

- إن بونابرت مبالغ، ولم يعد أحد يرى فيه بطلاً منذ وفاة الدوق دانجيان.

- كان إعدام الدوق ضرورة تحتمها مصلحة الدولة، وكان الإقدام على ذلك يتطلب من نابليون شجاعة أدبية بالغة!

- فذعرت آنا بافلوفنا لذلك التصريح المضاد للشعور العام في روسيا. وبين زوارها، وتصاعدت أصوات الاحتجاج في حين راح "أيبوليت" يفرك ركبتيه سروراً، وهز الفيكونت كتفيه استخفافاً واستطرد بطرس بثبات:

- أن آل بوربون هربوا أمام الفوضى والإرهاب، ونابليون وحده عرف كيف يسيطر عليها. وأنقذ بذلك الحرية والمساواة.

- كان يجب بعد ذلك أن يرد السلطة إلى الملك الشرعي.

- ما كان ليستطيع ذلك، فالشعب كان يريد الاحتفاظ بالحقوق التي اكتسبها خلال تلك الثورة التي كانت في جملتها شيئاً رائعاً.

- طبعاً! قتل الملك، والاغتيالات والسرقات!

- هذا بلا شك هو عيب الثورة نتيجة اندفاعها، ولكن يبقى بعد كل حساب أن الثورة وهبت العالم حقوق الإنسان والمساواة بين المواطنين.

وخشيت آنا في بداية الأمر أن يغضب الفيكونت من كلام بطرس ولكنها أطمأنت حين رأته هادئ الجأش، يرد قائلاً:

- يا عزيزي المسيو بطرس، لا يمكن أن يكون الإنسان عظيماً وهو يقتل بغير محاكمة شخصاً لا يملك ضده دليلاً واحداً.

وصاحب الأميرة ليزا:

- ألم يقتل الأسرى أمام عكا؟ أن هذا فظيع!

وصاح ايبوليت:

- أنه رجل وصولي لا مبدأ له ولا ذمة.

فابتسم بطرس للجميع ابتسامة براءة وصفاء، كأنه يلتمس الصفح. وخف الأمير أندريه لإخراجه من ورطته ووضع حد لهذه المناقشة الشائكة فقال:

- كي نحكم على بونابرت حكماً عادلاً يجب أن نفرق في صدده بين الشخص وبين القائد وبين الإمبراطور...

فأسرع بطرس يقول:

- الأمر كذلك فعلاً.

فقد سره أن يجد ذلك المخرج من مأزقه.

***

وبعد ذلك تفرقت الحلقة الكبيرة إلى جماعات صغيرة تتحدث عن المراقص والمسارح، ولما تأخر الوقت أخذ المدعوون في الانصراف تباعاً وهم يشكرون لآنا سهرتها اللطيفة.

ولما استأذنت الأميرة ليزا في الانصراف، أخذتها آنا بافلوفنا جانباً وحدثتها عن ابن فاسيلي، وأنها ترشحه للزواج من ماري أخت زوجها أندريه. ثم طلبت منها أن تكتب إليها برأي والدا الفتاة في تلك المصاهرة.

الفصل الثالث

رهان عجيب

توجه بطرس إلى بيت صديقه أندريه بولكونسكي، ولم يكن أندريه وصل بعد. فدخل مباشرة إلى مكتب أندريه وتناول كتاباً حيثما اتفق واستلقى على الأريكة، فلما دخل أندريه بعد بضع دقائق بادره قائلاً:

– ماذا فعلت لآنا بافلوفنا يا بطرس؟

فابتسم بطرس ابتسامة غامضة وقال:

– أن الأب موريو رجل ذكي ولكنه لا يحسن عرض المسألة. أن السلام الدائم ممكن. ولكن ليس عن طريق التوازن السياسي.

فقاطعه أندريه قائلاً:

– دعنا من هذا الموضوع. وقل لي أي طريق اخترته لنفسك؟ السلك العسكري أم السلك السياسي؟

– لا رغبة لي في هذا ولا في ذاك.

– إن والدك ينتظر قرارك. يجب أن تستقر على رأي.

– إننا سنحارب نابوليون. وقد عزمت يا اندريه أن أحتفظ بحريتي فلا أنتظم في الجيش إلا دفاعاً عن الحرية. أما إن امتشق السيف لمساعدة النمسا أو انجلترا ضد أعظم رجل في العالم.

فهذا مستحيل!

– يا عزيزي. إن كان الإنسان لا يحارب إلا دفاعاً عن عقيدته لما نشبت حرب!

– يا ليت!

– معك حق، ولكن هذا خلاف الواقع.

– ولماذا ستذهب أنت إلى الحرب؟

– لا أدري. أو بعبارة أصح. سأذهب لأني... سئمت الحياة التي أحياها هنا. ولم يكد أندريه يقول هذه الجملة، حتى فتح باب المكتب ودخلت زوجته الأميرة الصغيرة ليزا، فاعتدل بطرس. ونهض زوجها أندريه ليقدم لها مقعداً، وقالت:

- إني لأعجب لماذا لم تتزوج آنا بافلوفنا؟ ما أحمق الرجال حقاً إذ يحجمون عن الزواج من امرأة مثلها. وأنت يا مسيو بطرس أراك تحب المجادلات.

- غاية الحب حتى أني أجادل زوجك وكنت أجادله الآن لأني لم أستطع أن أفهم لماذا يصر على الذهاب إلى الحرب؟

- وأنا لا أفهم تصرفه هذا ولا أفهم لماذا لا يستطيع الرجال أن يعيشوا من غير ان يتقاتلوا. أنه يشغل مركزاً لامعاً، فهو أركان حرب القائد الذي هو في الوقت نفسه قريبه ويستطيع أن أراد أن يغدو ياور الإمبراطور يفيض عليه دائماً من عطفه. وآنا بافلوفنا تؤكد لي أن من الممكن تدبير هذه المسألة عن طريق الإمبراطورة.

ولاحظ بطرس أن هذه الأقوال لا تروق لأندريه، فسأله متى ينوي الرحيل؟ فاغتاظت ليزا وصاحت وهي ترمق زوجها:

- لا أريد أن أسمع ذكر الرحيل، إني خائفة يا أندريه!

- وماذا يخيفك؟

- ما أشد أنانية الرجال أنك تهجرني وتتركني وحيدة في الريف.

- ستكونين مع أبي وأختي.

فاحمر وجه ليزا، واستطرد أندريه:

- ما الذي تخشينه؟ أن الطبيب أشار عليك بالنوم المبكر، فأذهبي ونامي.

وعجب بطرس لهذا التوتر بين الزوجين فأراد أن ينسحب. بيد أن الأميرة التي كانت شفتها الدقيقة تختلج غضباً صاحت به:

- أن المسيو بطرس يستطيع أن يسمع ما أريد أن أقوله لك. إنك تغيرت يا زوجي وتغيرت معاملتك لي. ماذا صنعت لك؟ إنك لا تشعر بالرأفة الواجبة نحوي.

- إني أدعوك إلى الصمت يا ليزا!

- هل أنا طفلة أم مريضة حتى تعاملني على هذا النحو؟

وخشي بطرس أن تنفجر الأميرة باكية فقال:

- هدئي من روعك، واسمحي لي أن أنصرف.

فقبض أندريه على ذراعه وقال له:

- إن زوجتي لن ترضى أن تحرمني من وجودك معي.

- إن زوجي لا يفكر إلا في نفسه!

ثم ألقت على أندريه نظرة عتاب واقتربت منه فقبلته فوق جبينه على استحياء. فقال:

– إلى اللقاء يا ليزا.

ثم قبل يدها بأدب كأنها غريبة عنه. ولما انصرف قال:

– الآن هيا لنتعشى.

***

وفي منتصف الطعام أخذ أندريه يتحدث إلى صديقه بلهجة من يفضي بسر كان على صدره:

– إياك يا صديقي أن تتزوج! فإن كانت لك ثقة في نفسك. وكنت من أصحاب هذا الطموح فسيقضى الزواج على آمالك. ولا يترك مجالاً لنشاطك ألا تلك الصالونات التي سترى نفسك غارقاً فيها بين التافهين والفارغين. هذا إن لم تهبط إلى مستوى الخدم! إن زوجتي ولا شك امرأة ممتازة مخلصة لا غبار على سلوكها... ولكن ثق أني مستعد لدفع أي ثمن أرجع به إلى حياة العزوبية! إني لم أبح بهذا الاعتراف لمخلوق ولم أبح به إلا لك لأني أحبك، كي تتعظ به!

وكأنما الذي يتكلم في هذه اللحظة ليس الأمير أندريه بولكونسكي الفاتر الواجم الذي لا يبالي شيئاً. على النحو الذي شوهد به في صالون

آنا بافلوفنا. بل هو الآن إنسان تلمع عيناه ببريق خاطف. ويختلج صوته بحماسة وانفعال طال كتمانه.

وسكت أندريه برهة ثم استطرد قائلاً:

- لئن كانت حياتي قد انتهى أمرها. فحياتك تشرف على البداية فلنتحدث عنك.

- ولماذا؟ من أنا؟ ابن غير شرعي! أما أنت. فكيف تظن أن حياتك فسدت. مع أنها تمتد أمامك بأكملها ممهدة الطرق؟ أني رجل بغير اسم وبغير ثروة. لا أدري ماذا أصنع. وكم يسعدني أن تنصحني.

فرمقة أندريه بنظره مودة وعطف وقال:

- إنك الشخص الوحيد في مجموعتنا الذي ينبض بالحياة وستنجح أينما كنت. ولكني أنصحك أن تنقطع عن مخالطة أناتول فاسيلتش. فهو داعر عربيد.

- إنك على حق. فلا يمكن لأحد أن يضع شيئاً له قيمة وهو على ذلك المنوال. وكان أناتول دعاني للسهر معه الليلة. ولكني أعدك بشرفي ألا أذهب.

***

وافترق الصديقان بعد منتصف الليل. وكان في نية بطرس أن يعود إلى مسكنه. بيد أن تلك الليلة من ليالي يونيه كانت فائقة الحسن والصفاء. فلم يجد في نفسه الشجاعة على الإيواء لفراشه. ففكر في سهرة أناتول. وشعر برغبة لا قبل له بمقاومتها أن يلهو للمرة الأخيرة تلك الليلة.

وكأنه نسى وعده لأندريه. فقال لنفسه أنه سبق أن وعد أناتول بالذهاب إليه. ثم توجه إلى هناك. فوصل بعد انتهاء العشاء.

وكان الجالسون على المائدة نحو عشرة. تجمعوا بعد ذلك قرب النافذة. وتشاغل ثلاثة منهم بمعاكسة دب صغير كان مقيداً في سلسلة.

وكانوا جميعهم سكارى فتقدم أحدهم واسمه دولوخاو. وهو ضابط ومقامر متهور على أنه ليس ثرياً. وأخذ يراهن أنه يستطيع أن يشرب زجاجة من الروم وهو جالس على حرف النافذة وقدماه مدليتان في الهواء!

وكانت الخمر قد أثارت لدى أناتول الرغبة في تحطيم أي شيء. فقام على الفور وأخذ يحطم زجاج النافذة ليعد المسرح لتنفيذ الرهان. وصاح الضابط دولوخاو.

– إني أرهنكم بخمسين روبلا. ومستعد أن أعطى مائة وخمسين لمن يصنع مثلي!

ثم اعتلى دولوخاو أفرير النافذة. وجلس ودلى قدميه إلى الشارع. ثم تناول زجاجة الروم التي قدموها إليه. فصاح ضابط شاب أقل من الآخرين سكراًَ:

- أتوسل إليكم أيها السادة أن تمنعوه!

فصاح به أناتول:

- اخرس! صياحك قد يشعره بالخوف فيقع!

ورفع دولوخاو زجاجة الروم إلى شفتيه. ثم طوح برأسه إلى الوراء. ووقف أناتول برقبه باهتمام وقد اتسعت حدقتاه. أما الضابط الشاب الذي كان فزعاً من تلك المجازفة فأشاح برأسه بعيداً.

وشعر بطرس بالخوف الشديد. فغطى وجهه بيديه. وحبس جميع الحاضرين أنفاسهم ومال رأس الشارب إلى الوراء أكثر فأكثر والزجاجة ترتفع ببطء. والصمت يزداد في كل لحظة ثقلاً... وبطرس مستمر في تغطية وجهه بيديه.

وأخيراً شعر بهم يتحركون من حوله ففتح عينيه ونظر فرأي دولوخاو شاحب الوجه ولكنه مزهو بالظفر وقد وقف على أرض الحجرة وأخذ يصيح: "انظروا".

فرأوا الزجاجة فارغة تماما!

وارتفع تهليلهم وهتافهم، وأخرج الخاسر كيس نقوده ليدفع قيمة الرهان. وعندئذ صاح بطرس فجأة:

- أيها السادة! إني أراهنكم أن أفعل ما فعله دولوخاو. أحضروا حالاً زجاجة روم. وانظروا كيف سأشربها جرعة واحدة.

وقفز بطرس على الفور فوق النافذة. فضحك دولوخاو وقال:

- إني عند قولي. دعوه يفعل ما فعلت وسأعطيه مائة وخمسين روبلا.

أما الآخرون فالتفوا حول بطرس وصاحوا به:

- كلا كلا. إنك تعلم أن رأسك يدور حين تصعد السلم.

وجعلوا يجذبونه لينزل عن النافذة. ولكنه كان قوي البنية فتخلص منهم ودفعهم بعيداً عنه بسهولة. وأدرك أناتول أنه لا فائدة من استخدام القوة مع بطرس.

فقال له بهوادة وكياسة:

- رهانك قائم ولكن أبقه إلى الغد، أما الآن فهيا بنا لمشاهدة الممثلات.

فأجاب بطرس بسذاجته الصبيانية المعهودة:

– ليكن هيا بنا. ولكن لنأخذ معنا الدب الصغير. فإني أحببته ولا أريد أن أفارقه.

***

وفي الأمير فاسيلي بالوعد الذي انتزعته منه الأميرة تروبتسكايا. فرقى ابنها بوريس ضابطاً في الحرس. ولكنه لم يعين باورا للجنرال كوتوزاو القائد العام.

وشعرت والدته أنها ظفرت بنصف مرادها، فعادت إلى موسكو، وكانت تقيم في قصر آل رستاو، وهم أثرياء من ذوي قرابتها، تربى عندهم ابنها بوريس.

وكان هذا اليوم يوم احتفال كبير عندهم، بمناسبة "عيد القديسة ناتالي"، الذي هو عيد الأم وصغرى الفتيات. وكانت الأم الكونتيس تقوم مع ابنتها الكبرى فيرا باستقبال الضيوف وتساعدهما الأميرة تروبتسكايا.

وكان عدد المدعوين كثيراً. وكان الكونت رستاو يشدد عليهم في البقاء للعشاء في تلطف ومودة وبشاشة. ثم اتجه الكونت إلى القاعة الكبرى الرخامية حيث كان وكيل دائرته يشرف على معدات العشاء لمائة شخص.

وبعد أن أطمأن الكونت إلى أبهة المائدة الهائلة عاد فجلس وهو ينتهد بارتياح في الصالون. وإذا الحاجب يقترب من الكونتيس ويقول لها:

- ماريا كاراجواين وابنتهما.

وكانت الكونتيس متعبة جداً. بعد انصراف المدعوين لتبديل ثيابهم لكي يعودوا للعشاء. بيد أنها كانت تعرف شدة حساسية تلك السيدة. فأمرت الحاجب بإدخالها.

ودخلت سيدة طويلة القامة متعالية تتبعها ابنتها التي كان وجهها المستدير الباسم يختلف كل الاختلاف عن وجه أمها. ودار الحديث بين السيدتين عن مرض الثرى العجوز بزوخاو. وعن ابنه بطرس غير الشرعي الذي كانت سيرته فضائح.

وقصت ماريا كيف أن بطرس وأصدقائه أثاروا ضخباً شديداً عند الممثلات بدب صغير كانوا يجرونه ورائهم. فاستدعاهم الصغير حكمدار البوليس ليوبخهم ويردهم إلى ثوابهم. فربطوا الدب الصغير إلى رقبة صاحبه ثم ألقوا الاثنين في ترعة. فسبح الدب الصغير إلى الشاطئ حاملاً صاحبه فوق ظهره!

وضحك الكونت كثيراً من هذه القصة. غير مكترث لاستياء ماريا. وابتسمت السيدات الأخريات. واستطردت ماريا قائلة:

- أنهم جميعاً حفنة من الماجنين الفارغين. فمنهم ضابط اسما دولوخاو أنزل من رتبته. وأناتول فاسيلفتش هدد بالنفس من العاصمة. وبطرس بزوخاو أرسلوه إلى موسكو. ويقال أنه سيرث ثروة كبيرة من أبيه ولكن لا أظن أحداً سيقبل أن يفتح له في موسكو باب بيته.

فقالت الكونتيس:

- ولماذا يرث أباه وحده؟ أنه ابن غير شرعي للكونت بزوخار. ولكن يشاركه في هذه الصفة عدد كبير من الأخوة.

فقالت الأميرة تروبتسكايا موضحة:

- سأخبرك بالموضوع. إن الأمير فاسيلي نسيت الكونت. وكان سيرثه عن طريق زوجته ولكن الكونت يحب بطرس جداً. ولهذا كتب إلى الإمبراطور يبدي رغبته في توريث بطرس اسمه ولقبه وثروته. أما الأمير فاسيلي فسافر إلى موسكو بمجرد علمه بمرضه.

وفي هذه اللحظة ظهرت فجأة فتاة في الثالثة عشرة من عمرها تقريباً. محدثة ضوضاء. ولا شك أنها كانت مندفعة بحماس اللعب. وفي فرجة الباب ظهر رفاقها الشبان الأربعة. وهم: طالب في زى طلبة الكلية الحربية الرسمي. وضابط في الحرس. وفتاة في نحو الخامسة عشرة. وصبي صغير.

ودهش الكونت للفتاة الصغيرة فرفعها بين ذراعيه ضاحكاً:

– ها هي ملكتنا الصغيرة ناتاشا. بطلة اليوم!

ولاطفتها ماريا مبدية إعجابها بها. وكانت الفتاة عاطلة من الجمال بالرغم من عينيها السوداوين وفمها المعبر الواسع قليلاً.

وتركت الفتاة أباها والتصقت بأمها وقد احمر وجهها. فتجاسر زملاؤها الأربعة ودخلوا الصالون وهم يجتهدون وسعهم أن يحتفظوا بالجد والوقار لأنهم في الحجرات الداخلية للقصر كانوا مشتبكين في معركة ودية.

وكان الضابط هو بوريس. وملامحه جميلة منتظمة. وطبعه يبدو هادئاً. أما الطالب فهو نيقولا. ويدل وجهه على الصراحة والصفاء. بيد أنه يميل إلى الخجل. ويحمر وجهه كلما هم بالكلام.

وتقدم بوريس من أمه فقال لها بأسي:

– يا والدتي العزيزة. أظن أنك تريدين استدعاء عربتك. سأذهب كي آمر بتقدمها إلى الباب.

ثم خرج لينضم إلى ناتاشا التي خرجت تقفز. وإلى بطرس الابن الثاني للكونت رستا الذي كان هو الغلام الصغير الرابع. أما نيقولا فبقى مع ابنة عمه سونيا. وهي تلك الفتاة ذات الخمس عشرة سنة. السمراء

البشرة الرقيقة العينين الطويلة الأهداب. وكانت رشاقة حركاتها تذكر الإنسان بالقطط الصغيرة.

وجلست سونيا تصغي للحديث باسمة. إلا أنها لم تحول عينيها عن ابن عمها نيقولا. الذي كان أبوه الكونت يتحدث عنه إلى ماريا قائلاً:

- كان المفروض أن يدخل السلك الإداري فهناك وظيفة محفوظة له. ولكنه بدافع من صداقته لبوريس يريد أن يتركنا ليدخل الجيش.

- يقولون إن الحرب أعلنت.

- يقولون ذلك. ولكن هذا على غير أساس ولا أدرى لماذا يصر نيقولا أن يدخل الجيش من أجل صديقه.

فاحتقن وجه نيقولا وقال:

- ليس من أجل صديقي. بل لميلي إلى الحياة العسكرية.

فنظرت إليه سونيا وجوليا ابنة ماريا كاراجواين باسمتين مؤيدين. فقال الكونت بلهجة تجمع بين التسامح والاستسلام:

- بونابرت هو الذي أدار رءوسهم. كلهم يحلمون أن يبدأوا ضباطاً صغاراً كي ينتهوا إلى أباطرة!

وانتفضت سونيا وهي تسمع جوليا تقول لنيقولا في رقة:

- ولقد تكدرت كثيراً وسئمت لعدم حضورك سهرة آل ارخاداو الأخيرة.

وسر نيقولا. فاتجه نحو جوليا خطوة. ثم التقت عيناه بعيني سونيا اللتين ومضتا ببريق الغيرة. وشعرت الفتاة أنها سوف لا تتمكن من مغالبة دموعها فخرجت مسرعة. وتأثر نيقولا وأنتهز أول فرصة فخرج يبحث عنها.

ولمحت الكونتيس تلك الحركات فتنهدت وقالت:

- إنهم في سن الخطر. ولكنب واثقة بتهذيبهم. ومتأكدة أن بناتي لن يفعلن شيئاً وراء ظهري. وأن نيقولا لن يقلد في تهوره فتيان بطرسبرج.

وضحك الكونت وقال:

- أولادنا في منتهى الظرف. وابنتى ناتاشا تعجبني. فهي ذات صوت ساحر. رغم طفولتها.

فقالت الكونتيس وهي تبتسم الأميرة تروبتسكايا:

- ومع هذا فهي تحب منذ الآن بوريس. وما دامت تطلعني على كل شيء فأنا أفضل ألا أمنعها. أجل أني أدللها ولكن هذا أفضل من معاملتها بالشدة كما عاملت أختها الكبرى فيرا.

فقالت الكونتيس فيرا بكل جد:

- **الحقيقة أني ربيت بمنتهى الشدة.**

فعلق الكونت على ذلك بقوله:

- **هذا صحيح. لأن زوجتي كانت تتمرن على فن التربية في ابنتنا الكبرى فيرا ومع هذا فقد غدت فتاة ممتازة.**

وانتهت الجلسة. وانصرفت ماريا وابنتها والأميرة بعد أن وعدن بالعودة للعشاء. ولما خلا الصالون قالت الكونتيس:

- **يا لها من ثقيلة! كنت أظنها لا تفكر في الانصراف.**

الفصل الرابع

الهوى والشباب

اتجهت ناتاشا إلى خميلة في الحديقة حيث وقفت تنتظر بفارغ الصبر بوريس. وأخيراً ظهر بوريس مقبلاً بخطوته المتناسقة. فتدارت ناتاشا وراء النباتات. وظن بوريس أنه وحده في المكان فأخرج مرآة صغيرة وراح يبتسم لصورة وجهه الجميل. ثم نفض كمه وابتعد بعد أن ألقى نظرة على ما حوله.

ولم يكد يبتعد حتى جاءت سونيا محتقنة الوجه، والدموع تنهمر على وجنتيها. وبعد لحظة أقبل نيقولا مسرعاً نحوها وسألها:

- ماذا بك؟ ماذا فعلت لك؟

- أنت تعلم. اذهب إليها.

- يا سونيا إنك تعذبين نفسك بأوهام.

ثم تناول يدها فلم تجذبها من يده. وكانت ناتاشا في مكمنها ترقبهما وتقول لنفسها:

- لننظر ماذا سيصنعان.

- يا سونيا أنت تعلمين أنني لا أحب سواك.

ثم لف ذراعه حول خاصرتها وقبلها.

فسرت ناتاشا كثيراً لهذا المنظر. ولما ابتعدت سونيا ونيقولا أسرعت تنادي بوريس الذي كان يبحث عنها. وقالت له:

- اسمع.. ألا تساورك الرغبة في تقبيلي.

فاحمر وجه بوريس وظهر عليه التردد. فلم تترك له فرصة وقفزت فوق أحد مقاعد الحديقة وكان قريباً منهما. ثم أمسكت الفتى من رقبته بقوة وطبعت على شفتيه قبلة. ثم نزلت إلى الأرض!

- أنت تعلمين يا ناتاشا إني أحبك. ولكن تذرعي بالصبر. كلها أربعة أعوام وأتزوجك فوقفت ناتاشا تفكر برهة ثم أخذت تعد على أصابعها.

- ثلاثة عشر. أربعة عشر. خمسة عشر. ستة عشر. جميل! اتفقنا.

- هذا وعد شرف!

فتناولت ذراعه وقد طفح وجهها بالبشر ثم عادت معه إلى القصر فجلسا بالقرب من نافذة غير بعيدة من الشرفة التي جلست فيها سونيا مع نيقولا.

أما فيرا التي صرفها أمها لتتحدث على سجيتها مع الأميرة تروبتسكايا. فدخلت إلى الحجرة ونظرت ببرود إلى هؤلاء العشاق الذين ضايقهم حضورها. ثم تناولت من يد نيقولا محبرة من الفضة كان يمسكها لسونيا وهي تنسخ له شعراً من تأليفها.

- لقد نهيتك مراراً من المساس بأشيائي. ثم ما هي هذه الأسرار التي بينكما في هذه السن؟

فصاحت ناتاشا غاضبة:

- لكل إنسان أسراره. وهل أتداخل أنا بينك وبين برج؟

- أنا لا أصنع شيئاً ألام عليه. ولكني سأقول لوالدتي ماذا تصنعين مع بوريس أيتها الطويلة اللسان.

فقال بوريس بكل هدوء:

- ناتاشا في غاية الرقة وحسن السلوك معي.

أما ناتاشا فقاطعته قائلة لأختها:

- أنت لا تفهميننا. أذهبي إلى صاحبك برج!
- أنا لا أجري على كل حال وراء شاب أمام الناس.

فصاح نيقولا:

- هذا يكفي يا فيرا. أظنك قلت لنا ما فيه الكفاية من المغصات. طابت ليلتك!

ثم انصرف العشاق الأربعة وهم يضحكون ساخرين من فيرا.

ولم تضطرب فيرا بل نظرت لصورتها في المرآة وسوت زينة شعرها.

***

وفي الصالون كان الحديث يجري بين الكونتيس ورستاو والأميرة تروبتسكايا.

قالت الأميرة العجوز:

- حماك الله يا عزيزتي من محنة الترمل. لقد عشت وحيدة فقيرة مع ابني فتعلمت ما هي الحياة! فحين أشعر بحاجة إلى سند من شخصية عظيمة. اذهب إليها بنفسي وأظل ألح إلى أن أفوز بمرادي. وليظنوا بي ما يشاؤون.

- إني شديد الإعجاب بك يا عزيزتي. ولكن أشعر إني عاجزة عن القيام بأي شيء لنفسي. مع إني مدركة تماماً إننا لن نستطيع الصمود طويلاً أن ظللنا نعيش في هذا المستوى من البذخ. فالكونت طيب القلب جداً ولا يعرف شيئاً من علم الحساب. ينفق بلا ترو في النادي. والمسرح. والصيد والمآدب وغير ذلك مما أدريه أو لا أدريه! من الذي وسطتيه من أجل بوريس؟ ها هو صار ضابطاً في الحرس. بينما ابننا نيقولا طالب في الحربية.

- قابلت الأمير فاسيلي. فخاطب الإمبراطور في شأنه.

- الأمير فاسيلي! لابد أنه تقدم في السن كثيراً منذ الوقت الذي كان فيه يغازلنا.

- أنه لم يتغير. وهو ليس متغطرساً مع أنه يشغل منصباً رفيعاً... وأنت تعلمين كم أحب أبني. ولن أتردد في فعل شيء يسعده. ومع هذا أشعر بضيق شديد لأني لا أدري بماذا أشتري له كسوة الضابط الرسمية. أنها تتكلف خمسمائة روبل. وأنا لا أملك سوى خمسة وعشرين. وأملي الوحيد الآن في الأمير بزوخاو. فهو أشبين ابني بوريس وربما رق له وساعده. والأمير واسع الثراء. كما تعلمين:

- هل سيوصي بشيء لابنك؟

- لا أدري. ولكن سأذهب لزيارته مع بوريس. وسأدعه يفطن إلى حقيقة حالتنا. فإن مستقبل ابني رهن بهذه الخطوة. والساعة الآن الخامسة. فالوقت متسع كي اذهب إلى قصر بزوخاو ثم أعود للعشاء. إلى الملتقى يا صديقتي العزيزة واسألي الله أن يرزقني التوفيق كي يرث بوريس ثروة.

وكان الكونت قد سمع العبارة الأخيرة فقال لها:

- إن وجدت أن الأمير بزوخاو قد تحسن فاطلبي من بطرس أن يحضر معك للعشاء فطباخنا يزعم أنه لم تقم وليمة أطيب مما أعده الليلة لنا.

ولما استقرت الأميرة في العربة مع ابنها قالت له:

- كن لطيفاً لبقا مع أشبينك، فمستقبلك بين يديه.

- سأفعل ما تريدين، ولكني لا أتوقع خيراً.

ودخل الاثنان البهو. فاستقبلهما الحاجب السويسري. وألقى على معطف الأميرة القديم نظرة سريعة. ثم قال أن الأمير في حالة سيئة ولا يستقبل أحداً. فأراد بوريس أن ينسحب. بيد أن أمه استبقته وقالت للحاجب بلهجة ذات مغزى.

– أعلم أن الأمير مريض جداً، وهذا هو سبب حضورنا، فأنا قريبته، ومستعدة عند اللزوم ألا أقابل إلا الأمير فاسيلي.

فاعتذر الحاجب السويسري ثم تقدمها فوق السلم الفخم، وتبعها بوريس مطرقاً إلى الأرض إلى أن وقفا أمام باب. أنفتح في تلك اللحظة لكي يبرز منه الأمير فاسيلي ومعه أشهر أطباء بطرسبرج، الدكتور لوران.

وسأل الأمير بصوت منخفض ذلك الطبيب:

– أتظن أنه لم يعد هناك أمل.

فهو الطبيب يديه. وصاح الأمير بحركة تدل على القنوط. وعندئذ فطن الأمير إلى وجود الزائرين فدهش. وحياه بوريس باحترام. وتجاهلت أمه فتوره وسألته عن حالة المريض.

ولم يرد فاسيلي على تحية بوريس. بل أشار إلى الأميرة برأسه وذراعه إشارة تدل على ازدياد الحالة سوءاً. فقالت الأميرة:

– شيء فظيع!

ثم أشارت إلى ابنها وقالت:

– أراد ابني أن يشكرك بنفسه.

- أسعدني كثيراً أن أقدم لك خدمة. وأنا مقتنع أنك ستخدم بكل إخلاص. هل أنت في إجازة؟

- بل في انتظار الأوامر يا صاحب السعادة.

وقالت الأميرة لفاسيلي:

- وهل الأمير بزوخاو مقضي عليه؟ لقد كنت أريد أن أشكر هذا العم العزيز على الأفضال التي غمرنا بها. لأنه اشبين ابني بوريس وانتفض فاسيلي. ففهمت الأميرة أنه يرى فيها منافسة له في ميراث الأمير بزوخاو:

- إني أحب هذا العم ومخلصة له جداً. فهو رجل نبيل. ولا يحيط به في مرضه الأخيرة إلا الأميرات. وهن صغيرات السن بالنسبة للموقف. يجب أن نعده لأداء واجباته الدينية الأخيرة ونحن المسنات نعرف كيف نقول هذه الأشياء للمرضى. ومع إن هذه المقابلة ستؤلمني جداً. ولكن لابد من ذلك. لأن المسألة الآن تتعلق بخلاص نفسه الأبدية!

فأدرك فاسيلي أنه لن يستطيع التخلص منها. وفي هذه اللحظة ظهرت إحدى الأميرات. فاتجه الأمير نحوها وقال لها:

- إن عزيزتنا مستعدة لمساعدتكن في العناية به.

فلم تجب الأميرة الشابة وخرجت من غير تعليق. فجلست الأميرة العجوز كأنها في بيتها ولم يظهر عليها أي استعداد للانصراف. ودعت فاسيلي للجلوس بجوارها. وقالت لابنها:

- يا بوريس. سأدخل أنا عند عمنا المريض. وتذهب أنت عند بطرس فتبلغه دعوة آل رستاو. وإن كنت أعتقد أنه سوف لا يذهب فهز الأمير فاسيلي كتفيه وقال:

- ولماذا لا يذهب؟ خلصيني منه. فقد استقر هنا لا يريد أن يفارق البيت مع أن الأمير بزوخاو لم يطلب أن يراه.

وكان بطرس قد اضطر لمغادرة بطرسبرج بعد حادث الدب الصغير وحكمدار البوليس. فجاء ونزل بقصر أبيه. فاستقبلته الأميرات الثلاث بنات عمه مقابلة سيئة. وكبراهن هي تلك التي لم تتنازل بالرد على الأميرة تروبتسكايا. ووجهها قبيح، أما الثانية فكانت جميلة. ولكنها شديدة الفتور كأختها. وأما الثالثة فخفضت رأسها عند دخول بطرس حتى لا تنفجر ضاحكة. وقال بطرس لهن بهدوء:

- كيف حالكن يا بنات العم؟ وكيف حال الأمير؟ هل أستطيع أن أراه؟

- إن الأمير قد زادت حالته سوءاً منذ سمع بسوء سلوكك. فإن كنت تريد أن تقتله فأدخل عليه.

فقال لهن بطرس:

– إذن سأذهب إلى جناحي الخاص. وأرجو أن تخطرني حينما يكون من الميسور لي أن أرى والدي!

ثم خرج من الحجرة تشيعه ضحكات رنانة من بنت عمه الصغرى.

وفي اليوم التالي حضر الأمير فاسيلي ونزل بالقصر وقال لبطرس:

– أنت تعلم أن والدك مريض جداً. ولكن لا جدوى من مقابلته. وبعد ذلك لم يشغل أحد نفسه بأمر بطرس الذي بقي منعزلاً في حجرته.

***

ووجد بوريس بطرس يتمشى في حجرته ويلوح بقبضته متوعداً عدواً وهمياً وهو يردد ألفاظاً غريبة:

– قضى على انجلترا. أن "بت" خائن الأمة ويجب أن يعدم..

وكان على وشك النطق بالحكم. وهو يتخيل نفسه نابليون بعد أن تم له فتح انجلترا! وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الضابط الأنيق بوريس الذي عرفه في عهد الطفولة ثم اختفى عن ناظريه بعد ذلك. ومد إليه يده باسما. فأبلغه بوريس دعوة الكونت رستاو. فقال بطرس بحماسة:

– أنت ابنه إذن؟

- كلا. بل ابن الأميرة تروبتسكايا.

- إذن أنت بوريس. لقد اختلط على الأمر لكثرة معارفي في موسكو. ما رأيك في حملة بولونيا؟ أن آخرة الإنجليز سوداء بعد أن يعبر نابليون بحر المانش وينزل على شواطئهم.

فقال بوريس بشيء من التهكم:

- دع الحملات جانباً. فالقوم هنا يهتمون بالرقص والولائم أكثر من السياسة وشغلهم الشاغل الآن الحديث عنك وعن أبيك.

وعندئذ دخل أحد الخدم وقال لبوريس أن أمه تنتظره. فاستأذن من بطرس الذي شد على يده ووعده بالتوجه لدى آل رستاو.

وقاد الأمير فاسيلي الأميرة العجوز إلى عربتها. وكانت تبدو متأثرة جداً.

- إلى الملتقى يا عزيزتي. وشكراً لك.

وكان يبدو غير مبال بتأثرها. فلما استقرت في العربة بجانب ابنها قالت له:

- إن حالته في منتهى السوء. ولم يعد يعرف أحداً.

- إني لا أدرك تماماً يا أماه علاقته ببطرس.

- وصيته ستحدد لنا تلك العلاقة. ومصيرنا نحن متوقف على تلك الوصية.

- ولماذا تعتقدين أنه سيترك لنا شيئاً في وصيته؟

- لأنه غني جداً يا ولدي. ونحن فقراء جداً!

- إن هذا السبب لا يبدو في نظري كافياً يا والدتي العزيزة.

بقيت الكونتيس رستاو وحدها بعد انصراف بوريس وأمه الأميرة تروبتسكايا. وراحت تفكر في مرارة في موقف صديقتها الشيء. وأرسلت إلى الكونت تخبره أنها تريده. فحضر مسروراً وجلس بجوارها وهو يقول:

- يا لها من مائدة! ولو ذقت الشواء المضمخ بنبيذ ماديرا! لقد ذقته ووجدته عجيباً حقاً. الواقع أن طاهينا يستحق الألف روبل التي أدفعها مرتباً له.. وعلى فكرة! ماذا تطلبين مني يا كونتيس؟

- أنا محتاجة إلى نقود. إلى نقود كثيرة.

- كم؟

- خمسمائة روبل.

- حالاً.

ثم صاح يدعو الخادم كي ينادي ميتذكاً وكيل دائرته. فلما حضر قال له:

– احضر لي سبعمائة روبل، ورقا جديداً نظيفاً. لأجل الكونتيس.

فظهر على وكيل الدائرة التردد لحظة. ثم لمح على وجه سيده مقدمات الغضب. فبادر يقول:

– ستكون بين يديك بعد بضع دقائق.

– حسناً. أعط السبعمائة روبل للكونتيس.

ولما انصرف وكيل الدائرة قال الكونت مسروراً:

– إنه رجل نادر المثال. كل شيء عنده ممكن.

– إن المال سبب كثير من الشرور. ولكن هذا المبلغ سيساعدني على فعل الخير.

– كلنا نعلم يا عزيزتي الكونتيس إنك سخية اليد.

ثم قبل يد زوجته وغادر الصالون.

ولم تكد الكونتيس تتسلم من يد وكيل الدائرة الأوراق الجميلة الجديدة حتى عادت من الخارج الكونتيس تروبتسكايا. وقالت لها:

- لقد وجدته في أسوأ حالة. قابلته ولكن لم أستطع أن أكلمه.

- خذي هذا. وأرجو ألا ترفضي.

وأحمر وجه الكونتيس رستاو، فأدركت الأميرة أنها تعطيها المبلغ الذي كاشفتها منذ قليل بحاجتها إليه، فعانقتها، وهي تقول:

- إنه من أجل ملابس بوريس...

ودخل بعد ذلك أفراد من المدعوين. وأخذ الكونت يقود الرجال منهم إلى مكتبه حيث دار الحديث عموماً عما أذيع عن إعلان الحرب.

وكان بين المدعوين ابن عم الكونتيس وهو "شن شين" أعزب مسن معروف بسلاطة لسانه. وتشنيعاته. وكان يتحدث مع ضابط من الحرس هو الملازم برج:

- إذن أنت يا عزيزي برج تطمع أن تقتصد شيئاً من مرتبك.

- هذا إذا التحقت بالمشاة. لأن سلاح الفرسان أكثر نفقة.

- شيء جميل!..

ولما سمع الكونت هذا الحوار انفجر ضاحكاً. واستطرد يتحدث عن أمله في الترقي في الجيش. وكان لا يتحدث أبداً إلا عن نفسه.

فكثرت من حوله ابتسامات السخرية. وجعل شن شين يتهكم عليه مما أضحك الحاضرين.

وانتقلوا بعد ذلك إلى الصالون حيث دخل بطرس بزوخاو.

وراح ينظر يميناً ويساراً من وراء نظارته بسذاجة. فأثار دخوله التطلع. ثم جلس بارتباك وسط الصالون. والجميع يتعجبون كيف تصدر عن مثل هذا الشاب الخجول ألاعيب المجون. مثل حكاية الدب.

وسألته الكونتيس هل قابل زوجها. فأجاب باسما أنه لم يره بعد. فسألته عن إقامته في باريس. فقال إنها مدينة لطيفة جداً. وصار واضحاً أن بطرس لا يحسن فن الحديث بهذه الإجابات المقتضبة. فحاولت الأميرة تروبتسكايا أن تستدرجه للكلام. فلم تستطع أن تستخرج منه إلا مقاطع قصيرة.

وفجأة صاحت الكونتيس رستاو حينما رأت سيدة بدينة طويلة القامة:

– ماريا ديمتريفنا!

فأجابها صوت ماريا الأجش:

– نعم هي عينها...

وكان المجتمع يطلق على ماريا اسم "الشرطي المرعب" وذلك لصراحتها الجارحة وخشونتها في السلوك واللفظ. وشمخت ماريا بأنفها ورمقت الحاضرين جميعاً بنظرة وقالت:

– أطيب تمنياني لناتاشا الأم وناتاشا البنت. اللتين نحتفل بعيدهما الليلة..

ثم التفتت نحو الكونت رب القصر وقالت له:

– أنت لاشك متضجر بالإقامة في موسكو أيها الخاطئ العتيق. لأنك لا تجد هنا فرصة للصيد!

واقتربت من بطرس وقالت له موعدة بصوتها الرنان:

– اسمع أيها الغلام الجميل! أنت لطيف ولكن لا أخفى عنك الحقيقة! أن سلوكك يا حبيبي فاضح! تعساً لك!

وضحك الكونت فاتجهت إليه قائلة:

– ماذا تنتظر؟ .. هيا إلى المائدة. فقد حان الوقت.

ووقف جميع الشبان في جانب المائدة. وراح يشرح لفيرا باسما أن الحب عاطفة سماوية. أما يوريسما فكان ينظر من طرف خفي إلى ناتاشا

التي لم تحول بصرها عنه. وفي الوقت نفسه جعل يذكر لبطرس أسماء جميع الحاضرين.

ولم يتكلم بطرس كثيراً، ولكنه أكل كثيراً، ولفت نظره وجه ناتاشا المعبر، فبعثه ذلك على الضحك من غير أن يدري لماذا. وكان نيقولا بجوار جوليا فجعل يتلطف إليها، مما أثار غيرة سونيا فجعلت تحمر وتصفر وهي ترمقهما من بعيد وتحاول أن تخمن موضوع حديثهما الخافت..

وتوالت ألوان الطعام وكل لون منها أشهى من سابقيه. وأخذت الأحاديث تنطلق من قيود التكلف، وشملت فيها شملت مسائل الحرب.

وكان من بين الحاضرين كولونيل الفرقة التي سينضم إليها نيقولا، وبجواره شن شين الذي قال له بجسارة أغضبت ذلك القديم:

- ما أسوا الحظ الذي أرغمنا على محاربة بونابرت! أن الرجل هزم النمسا. ويظهر أن الدور في هذه المرة هو دورنا..

- أن إمبراطورنا يعرف لماذا يحارب. فرغبته هي إقامة السلام في أوروبا على قواعد متينة، ومن واجبنا أن نحارب حتى الموت.

وطرق الضابط العجوز المائدة بقبضة يده متحمساً. ثم نظر إلى نيقولا وقال له:

- إني متفق معك في الرأي يا قائدي، إما أن ننتصر أو نموت!
فجلجل صوت ماريا ديمتريفنا قائلة له:

- على رسلك يا فتى! فأنت لست قائد الهجوم على الفرنسيين!

وهدأت حدة الحديث وتغير الموضوع عندما أديرت أقداح الشمبانيا وأخذ الموسيقيون في العزف، فقبل الكونت زوجته مهنئاً بعيدها. وأقبل المدعوون يهنئونها، ثم تفرقوا بين الصالون ومكتب الكونت والقاعات المعدة للعب..

***

وتجمع الشباب حول البيانو وطلبوا من نيقولا وناتاشا الغناء. وسرت ناتاشا لأنهم يعاملونها الليلة مثل الكبار، وراحت تنادي بوريس وسونيا. فلم تجد بنت عمها، فذهبت تبحث عنها إلى أن وجدتها تبكي بدمع غزير في الدهليز الخارجي. فسألتها وهي توشك أن تبكي لبكائها: "لماذا تبكين؟". فقالت:

- إنك لن تستطيعي فهم حزني. لأنك سعيدة ولا شيء يفرق بينك وبين حبيبك بوريس، ولكن نيقولا ابن عمي، وقد أخبرتني فيرا أن والدتك لن تسمح له بالزواج مني. بل سيتزوج جوليا كاراجوين.

فقبلتها ناتاشا وسرت عنها قائلة:

– لا تصدقي فيرا. فهي شريرة. ونيقولا لا يفكر في جوليا يا عزيزتي الجميلة..

– أهذا رأيك حقا؟

– بل أنا واثقة منه.. !

فابتسمت وجففت دموعها ودخلتا معا إلى الصالون. وقالت ناتاشا لبنت عمها:

– أن هذا الشاب البدين بطرس الذي كان أمامي على المائدة مضحك حقا!

وأخذ الأخوان بعد ذلك يغنيان بنجاح كبير. وبعد فراغهما من الغناء. عزفت الفرقة الموسيقية أنغام الرقص. وكان شن شين قد حصر بطرس في ركن وراح يحدثه في السياسة. بيد أن ناتاشا أسرعت نحو الشاب قائلة:

– ماما تريدك أن ترقص معنا..

– أخشى أن أشوه نظام الرقصة بجهلي، وخيبتي. لهذا أرجو أن تقوديني..

وفرحت ناتاشا فرحاً جنونياً بمراقصة شاب عائد من الخارج– من باريس– وكانت تعبث بمروحة في يدها ولا تكف عن الثرثرة والضحك. فسرت أمها لمنظرها.

وفي تلك اللحظة دخل قاعة الرقص الكونت رستاو ومعه ماريا ديمتريفنا. فراقصها. وكانت قامتها الضخمة كفيلة بتركيز الأنظار عليهما..

الفصل الخامس

لا وجود للشرف

بينما كانت السهرة عند آل رستاو في أوجها والكل في غاية المرح. كان الأمير بزوخاو قد وصل إلى منتهى السوء وأخذ يعد نفسه لتناول الأسرار المقدسة..

ودخل الأمير فاسيلي وقد شحب وجهه عند كبرى الأميرات. أما الصالون فكان فيه عدد من الناس يتهامسون في قلق وهم يرمقون باب حجرة المريض.

وتلفت الأمير فاسيلي بوجه كأنه الثلج إلى كاترين التي لزمت الصمت وقال لها:

- يجب أن تتوقعي أسوأ الأنباء يا عزيزتي كاترين. وتفكري في مستقبلك ومستقبل أخوانك، فأنتن مع زوجتي الوارثات المباشرات الوحيدات. بيد أنك تعلمين أن الأمير طلب حضور بطرس.. وباختصار كتب وصية يترك فيها كل شيء لبطرس، وهو ليس سوى ابنه غير الشرعي! وكتب الأمير رسالة إلى الإمبراطور يعترف فيها ببطرس ويطلب له توريث لقبه. بيد أن هذه الرسالة لم ترسل لجلالته

بعد، ولذلك يجب أن تعدم هذه الرسالة منذ الآن. فلو وجدت بعد وفاة الأمير في أوراقه، وكذلك الوصية فسيرث بطرس كل شيء.

- هذه الوصية غير قانونية يا زوج عمي. أتظنني بلهاء؟

- إني لا أدافع إلا عن مصلحتك وأؤكد لك أنه في حالة وجود تلك الوصية وذلك الخطاب فلن ترثي أنت وأخواتك شيئاً. هذا ما أكده لي القانونيون.

- شيء جميل! خدمناه وضحينا في سبيله وهذه هي العاقبة!

- تذكري أنه فعل ذلك في لحظة غضب. فيجب أن نحاول إصلاح خطئه ومنع وقوع ذلك الغبن الفاحش..

- كلا. فإني عرفت الآن أن لا وجود لشرف أو عدل. لا وجود إلا للخديعة والشر. وأنا أعرف من التي دفعته إلى ذلك العمل. إنها صديقتك تروبتسكايا عندما حضرت في الشتاء وقابلته طويلاً. وبعدها رفض أن يقابلنا طيلة أسبوعين. ثم كتب تلك الورقة الملعونة التي كنت أحسبها غير سارية المفعول. ووضعها في حافظة أوراقه تحت وسادته..

- هذا ما كنت أخشاه!

***

وبعد قليل حضر بطرس لأن فاسيلي أرسل إليه عربته ليستدعيه، فحضرت معه الأميرة تروبتسكايا لأنها أدركت أن الموقف يتطلب ذلك. وأخذت تشجعه طول الطريق. وكم كانت دهشتها عندما وصلت العربة أمام القصر أن تجده مستغرقاً في النوم، فأيقظته وتبعها وهو متردد كأنه يعجب لذهابه عند أبيه في تلك الساعة:

– أليس الأحسن أن أتوجه إلى حجرتي؟

– كلا. وأرجوك أن تعفو عن أخطاء من ناصبوك العداء. وثق إني سأرعى مصالحك بكل يقظة.

فرمقها بنظرة امتنان تنم عن الطيبة والمودة، ومشى خلفها. وعند مرورهما أمام الصالون الصغير كان بابه مفتوحاً قليلاً، فلمح بطرس الأمير فاسيلي مستغرقاً في الحديث مع كاترين. ونهضت كاترين فأغلقت الباب بعنف. ودهش بطرس. أما رفيقته فابتسمت ابتسامة ذات مغزى لم يفهمها بطرس.

ودخلا إلى صالون آخر كان به جملة أشخاص كفوا عن الكلام فجأة عند دخولهما. وكانت الأميرة تروبتسكايا تمشي بكل ثقة، وهي تشعر أن اللحظة الحاسمة قد حلت، ولما أبصرت الطبيب قالت له:

– أهي النهاية حقا يا دكتور؟ هذا الشاب ابن الأمير..

فأشار الطبيب بيده إشارة غامضة ورفع عينيه إلى السماء. فالتفتت نحو بطرس وترجمت له إشارة الطبيب قائلة:

– الأمر بيد الله.

ووجد بطرس نفسه محط تطلع الموجودين جميعاً، إذ كانوا يتهامسون ويرمقونه بمزيج من الخوف والاحترام، حتى إن إحدى السيدات نهضت وعرضت عليه مقعدها. وانحنى أحد الضباط انحناء كبيراً وبسرعة كي يعيد إليه قفازه الذي سقط من يده. وتقدم نحوه كثيرون لتحيته وهو لا يعرفهم!

وأحس بطرس أنه رجل تلك الليلة. ولاسيما عندما أقبل نحوه فاسيلي مادا يده، وقائلاً له:

– أصيب بنوبة أخرى وطلب أن يراك. تشجع!

ثم تبادل فاسيلي مع الطبيب بضع كلمات، ودخل معه حجرة المحتضر، ودخل بعد ذلك القسيس والأميرة كاترين. فأشارت الأميرة تروبتسكايا إلى بطرس فدخل أيضاً.

***

وكان المريض راقداً نصف رقاد، فتناول الأسرار المقدسة، ووقف خلف القسيس الأميرات الثلاث، والأميرة تروبتسكايا والأمير فاسيلي.

وأصيب الأمير بزوخاو بهبوط وسط الصلاة، فأعطاه الطبيب مقوياً للقلب.

وانتهز فاسيلي وكاترين فرصة رقاد الأمير في مقعد طويل أثناء الصلاة وتناول الأسرار المقدسة فاتجها نحو فراشه في أقصى الحجرة واختفيا وراء الستائر، ثم رآهما يعودان قرب نهاية الصلاة..

وعندئذ أعيد الأمير بزوخاو إلى فراشه. وأشارت الأميرة تروبتسكايا إلى بطرس فجلس عند رأس أبيه. وحول المحتضر عينيه نحو ابنه، وحاول أن يبتسم له، ثم زفر زفرة عميقة. فقالت الأميرة لبطرس:

- إنه يحتضر، فهيا نخرج..

وعادا إلى الصالون حيث كان فاسيلي وكاترين وحدهما يتحدثان باهتمام بالغ. أما باقي الناس فكانوا في صالون آخر. واقتربت الأميرة تروبتسكايا من كاترين. وقالت:

- يا عزيزتي كاترين. سيكون من المؤلم جداً لعمك العزيز أن تحدثيه في هذه اللحظة باللذات عن أمور من عرض هذه الدنيا. فتدخل فاسيلي قائلاً:

- دعي كاترين تعمل ما تريد، فالأمير يحبها كثيراً..

وقالت كاترين وهي تظهر حافظة الأوراق التي كانت تخفيها وراءها:

- إني أجهل ما بداخل هذه الحافظة. لابد أن تكون أوراقاً عديمة القيمة، لأن الوصية الحقيقية في مكتبي.

وهمت أن تنصرف بالحافظة لولا أن الأميرة تروبتسكايا أمسكتها فجأة وقالت:

- كل هذا مفهوم، ولكن أشفقي عليه ولا تتعبيه الآن..

وبدأ تجاذب عنيف لحافظة الأوراق بين السيدتين، وصاحت الأميرة تروبتسكايا:

- هيا يا بطرس، لا تقف هكذا مكتوف اليدين، إن لك الحق في حضور اجتماع مجلس الأسرة.

وتدخل فاسيلي أخيراً فوضع حداً لتلك المشاجرة السخيفة، واحتفظت الأميرة تروبتسكايا بالحافظة. أما بطرس فوقف يشاهد ذلك كله وهو في غاية الدهشة. وانتهزت كاترين الفرصة وهجمت على الأميرة العجوز فأفلحت هذه المرة في انتزاع الحافظة منها..

وفي تلك اللحظة فتح باب الحجرة ودخلت إحدى الأميرتين الصغيرتين صائحة:

- إنه على وشك الموت. وأنتم تتركوني معه وحدي!

فتركت الحافظة من قبضة يدها واختطفتها الأميرة تروبتسكايا واندفعت نحو حجرة المريض ومن ورائها فاسيلي، وأصفر وجه كاترين غيظاً، وصاحت ببطرس:

- أنت في غاية السعادة طبعاً. فقد طال انتظارك لتلك اللحظة..

ثم انصرف باكية. ولما خرج فاسيلي من الحجرة كان وجهه شاحباً وذقنه ترتعد. وارتمى على مقعد، ثم خرجت الأميرة تروبتسكايا فقبلت جبين بطرس وهمست في أذنه:

- مات! حاول أن تبكي! والآن اذهب إلى حجرتك..

***

وروت الأميرة تروبتسكايا لآل رستاو وكثيرين غيرهم ما حدث في لحظات بزوخاو الأخيرة. وكيف أن بطرس أصبح من أغنى الأغنياء فجأة، وزعمت للناس أن الفقيد أظهر في مقابلته الأخيرة لبطرس حناناً عظيماً يستدر الدموع. وزادت من عندها أيضاً أن بطرس كاد ينفطر قلبه حزناً، ولكنه تماسك حتى لا يحزن قلب أبيه المحتضر..

- إنه لمما يسمو بالنفس حقاً أن يرى الإنسان مثل هذه العواطف النبيلة!

ولم تنس أن تندد بسلوك الأمير فاسيلي والأميرة كاترين.

وكان الأمير العجوز بولكونسكي ينتظر قدوم ابنه أندريه وزوجته.

وكان الأمير العجوز منذ نفاه القيصر بول يعيش في أملاكه مع ابنته الأميرة ماري ووصيفتها المرافقة الفرنسية الآنسة بورين..

وكان اهتمامه كله موجهاً إلى تعليم ابنته وتثقيفها، لا يهتم إلا بتنمية نشاطها وعقلها. فكان يعطيها دروساً في الجبر والهندسة، ويتحكم في تقسيم أوقاتها طول النهار لخدمة ذلك الغرض الشريف.

وهو شخصياً كان يهتم بالزراعة وبالحديقة، ويتسلى بالرياضيات العليا، والزخرفة الدقيقة، والجميع في بيته يخشونه لأنه كان مستبداً صارماً.

وفي صباح يوم وصول الأمير أندريه توجهت الأميرة مارى إلى حجرة أبيها لتحييه تحية الصباح، وكان مشغولاً بنقش زخرفي، فلم يقطع عمله لدخولها، وبعد برهة طويلة تذكر أن يقدم لها خده، فطبعت عليه قبلة خجلي وقال لها بخشونة:

- في هذه الكراسة نظريات هندسية جديدة يجب أن تدرسيها لغاية الغد، وها هو خطاب لك من جوليا طبعاً، وبعد خطابين آخرين من هذا النوع سأفكر في قراءة خطاباتك حتى لا تقدمي على كتابة سخافات. والآن انظري، أمامنا الزاوية– ا. ث. ح وأمامنا..

ولم تستطع الأميرة ماري أن تتابع شرح والدها لشدة خوفها. فاغتاظ وجعل يصرخ عند أول غلطة:

– أنت غبية جداً! هذا ليس جائزاً. أن علم الرياضة هو أهم العلوم، لأنه يقاوم خفة العقل، ونساء هذه الدنيا بحاجة شديدة إلى ذلك الدواء..

ثم ربت على خدها في شبه صفعة وصرفها قائلاً:

– ستنتهين يوماً إلى حب الهندسة.

ودخلت الأميرة حجرتها وأخذت تقرأ خطاب جوليا كاراجوين، فوجدتها تشكو إليها الشوق والبعاد، وتحدثها عن مجتمعات موسكو، وكيف أنها تافهة لا تفنيها عن نظرات صديقتها الحانية الثاقبة.

وتنهدت ماري وجعلت تنظر إلى وجهها في المرآة، فرات جسماً هزيلاً لا جمال فيه. ووجهاً نحيفاً، بيد أن عينيها كان لهما بريق وسحر خاص.

واستأنفت قراءة الخطاب فوجدت جوليا تتحدث عن الحرب، وتدعو الله أن يكتب الهزيمة على هذا القرصان الكورسيكي، ثم اعترفت أنها حزنت كثيراً لرحيل نيقولا رستاو كي ينضم للجيش، لأن علاقتها القصيرة جداً به كانت في الواقع من أعذب المسرات التي عرفها قبلها.

وكان الحادث الأكبر، حادث الساعة في موسكو، هو وفاة الأمير بزوخاو، الذي ترك ثروته كلها لبطرس، الذي أصبح اسمه منذ الآن الأمير بزوخاو، وهو بالرغم من تفاهته صار محط أنظار أمهات جميع فتيات المجتمع!

وحدثتها جوليا أيضاً عن إشاعة تدور على الألسنة في موسكو، حول مشروع زواج الأميرة ماري من ابن الأمير فاسيلي المسمى وأناتول، وهو مشهور بجماله، وقد رأت من واجبها أن تحيط صديقتها بتلك الإشاعة.

وبعد أن فرغت الأميرة ماري من تلاوة ذلك الخطاب، استغرقت في الشرود لحظة، ثم جلست تسطر إليها الرد المناسب، معربة لها عن سرورها الفائق، لأن صديقتها لم تنسها، ولم تزل تحبها كما كانت من قبل، ثم أخبرتها أن والدها تأثر كثيراً لموت الأمير بزوخاو، وأنها شخصياً ترى في بطرس رأيا جميلاً، لأنه فيما يبدو لها طيب القلب جداً، ولكن لسوء الحظ ستعرضه هذه الثروة الضخمة لكثير من ألوان الغواية، وتمنت على الله أن يجنبه المزالق والأخطار.

أما بخصوص الزواج الذي سمعت إشاعة حوله، فكل ما تعلمه ماري أن الأمير فاسيلي أرسل إلى أبيها أنه سيحضر لزيارته، ولكنها لا تعرف سبب الزيارة.

***

وفرغت ماري من كتابة الخطاب، ثم سمعت فجأة صوت عربة تقف أمام الباب الرئيسي، فألقت نظرة على الخارج، ورأت أندريه تصحبه زوجته.

وقال الخادم الذي استقبلهما لأندريه إن والده نائم، وكان أندريه يعرف تنظيم والده الدقيق لمواعيده اليومية، فنظر في ساعته وقال:

- سيستيقظ والدي بعد نصف ساعة، فهيا عند أختي.

وكانت الأميرة ليزا قد سئمت قليلاً بسبب الحمل، ولكن ابتسامتها لم تزل ساحرة، وقالت لزوجها وهي تتطلع حولها:

- إنه قصر بمعنى الكلمة.

وأقبلت الآنسة بورين فأظهرت سروراً عظيماً بمرآهما، وأكدت أن الأميرة ماري ستكون سعيدة جداً، وأقبلت الأميرة ليزا الفرنسية الشابة، وتبعها الأمير أندريه، واستقبلت ليزا ماري بالعناق وبادلتها ماري قبلاتها بكل حرارة، فقال أندريه:

- كفى هذه المظاهر الصاخبة!

فهجمت عليه ماري لتعانقه، وقد أوشكت أن تبكي من التأثر، فقبل أندريه يدها ببرود كعادته في العزوف عن إظهار عواطفه.

وأخذت ليزا تثرثر على عادتها من غير رابط، وماري لا تلقي إليها انتباهها، ثم سألت أندريه فجأة:

- أصحيح إنك راحل إلى الحرب!

فاكتفى أندريه بأن قال:

- غداً.

وابتسمت ليزا ثم تنهدت وقالت:

- سيتركني، مع أن في وسعه أن يبقى ويظفر أيضاً بترقية، سيهجرني في الوقت الذي سأصبح فيه أماً... وأنا خائفة.

فقاطعها أندريه قائلاً:

- أنت متعبة من السفر. خذيها إلى حجرتك يا ماري، وسأذهب أنا عند أبي، ألم يزل دقيقاً كعادته مثل الساعة؟

- أجل. النزهات نفسها في المواعيد نفسها، في الممرات نفسها، والأدوات نفسها، ودروس الرياضة نفسها...

فابتسم أندريه ابتسامة باهتة، ودخل خادم ليخبره أن الأمير استيقظ وهو الآن في انتظاره. وذهب إليه أندريه ليجده كما توقع مسلماً رأسه للحلاق كي يصفف شعره ويرشه بالبودرة على طريقة ذلك العصر.

ولما أبصر الرجل ابنه صاح وهو يقدم إليه خده:

- أهذا أنت أيها المحارب؟ أتريد أن تقاتل بونابرت؟

وقبله أندريه وسأله عن أخباره وصحته، فصاح:

- البلهاء والفاسقون هم الذين يمرضون يا عزيزي، أما أنا فأعمل وأعيش ولهذا فصحتي جيدة.

- الحمد لله يا أبي!

- لا شأن لله بهذا الأمر. وكيف علمك الألمان أن تحارب نابليون؟

- استأذنك يا أبي بكل إقدام أن تتركني استرد أنفاسي قليلاً، وأنا لا أعلم أين حجرتي...

- دع هذا، ستأخذ ماري زوجتك إلى حجرتها وتثرثر معها شأن النساء، أما إن فأشرح لي خطة الحملة ضد نابليون.

وبدأ أندريه يتحدث على مضض، ثم جرفته الحماسة، فشرح له المعونة التي سيقدمها النمساويون والسويديون والإنجليز للروس، وبفضل هذه المعونة ستجد فرنسا نفسها وقد هوجمت من جميع الجهات في وقت واحد.

وكان يبدو على الشيخ أنه غير مصغ حتى أنه وجه ملاحظة قاسية إلى وصيفه الذي أخطأ في انتقاء الصدار، وسأل عن موعد وضع ليزا، بل أخذ يصفر لحن "فالبرو ذهب إلى الحرب" وهو مارش عسكري انجليزي. وابتسم أندريه وقال:

- وعلى كل حال ستكون لدى نابليون خطته أيضاً.

- طبعاً طبعاً. هيا نتغذى.

ودخلا إلى قاعة الطعام، فلما لمح الأمير الأميرة ليزا ربت على خدها معلقاً على تضخم بطنها، وقال:

- هذا مبكر جداً.. يجب أن تسيري على قدميك طويلاً.

ثم أجلس زوجة ابنه بجانبه وراح يسألها عن صحة أبيها، فلما أفاضت في الكلام، أشاح عنها وشرع من غير مقدمات يتحدث إلى ابنه عن بونابرت:

- إن بونابرت يا ابني غير مدين بنجاحه إلا لأنه ليس خصوم أكفاء في الميدان مثل بوتمكين، وللاسف تتبع القيادة الروسية آراء الضباط البروسيين من غير تبصر، ولهذا أخشى ألا يتمكن القائد العام كوتوزاو من قهر بونابرت الذي لا أراه مع ذلك عبقرياً كما إني لأعجب يا أبي من حكمك هذا على بونابرت، فهو قائد عظيم جداً.

- بل إنه محظوظ، لأن خصومه كلهم قواد أغبياء. ثم لماذا لا تذهب وتحارب في صفوف بونابرت؟

ووجه الكلام إلى الآنسة بورين:

- إن ابني من المعجبين بمواطنك الأثيم!

- أنت تعلم إنني لست من أنصار بونابرت يا سيدي الأمير.

ولم تنطق ليزا بكلمة طول المناقشة، فلما انتهى الغداء قالت للأميرة ماري همساً:

- إن والدك ذكي جداً، ولكنه يخيفني.

- إنه طيب القلب جداً.

***

واهتم الأمير أندريه بمعدات سفره إلى أن جاءته ماري قائلة:

- أريد أن أتحدث إليك، فالله وحده أعلم متى سأراك بعد ذلك، لقد تغيرت كثيراً يا عزيزي أندريه.

- أليست ليزا معك؟

- نامت من شدة التعب، إن امرأتك كنز ثمين حقاً، كم أحبها!

فصمت أندريه، ولمحت ماري على شفتيه ابتسامة استخفاف فقالت:

- **يجب أن تتسامح في هفواتها الصغيرة، فهي ليست مثلنا ربيت في الريف على الجد وعمق التفكير، بل ربيت في المجتمع السطحي، فمن الصعب عليها أن تبقى هنا وحدها.**

- **ولكنك تعيشين هنا على ما يرام، أليست مثلك؟**

- **أنا شخصياً لا رغبة لي في شيء، أما ليزا فقد تعودت الحياة الاجتماعية وستشعر بشقاء عظيم في هذه الوحدة، وسوف لا أستطيع أنا وأبي أن نسليها، وربما كانت الآنسة بورين وحدها..**

- **هذه الفتاة لا تعجبني.**

- **ولماذا؟ إنها طيبة ومخلصة لنا، وهي يتيمة استقدمها أبي، ويستخدمها كي تقرأ له في المساء.**

- **كلميني بصراحة، إن أبي قاس، ولابد أنك شقية بطبعه الوعر. فذهلت ماري وقالت له:**

- **كيف تنتقد والدنا؟ إني لا أريد منك إلا شيئاً واحداً، خذ هذه الزيتونة وعدني أن تحملها دائماً من أجل خاطري.**

فضحك أندريه وقال:

- سأفعل ما لم يكسر ثقلها عنقي! وأعدك ألا أخلعها مهما حدث.

- شكراً لك، وكن كريماً مع ليزا فهي لطيفة جداً.

- ولماذا تلك التوصيلات؟ هل كلمتك وشكت إليك؟

فاحمر وجه ماري وسكتت تحت وقع نظراته فقال:

- ثقي إنني لا أجد في زوجتي عيباً، وإنني لا أفعل معها ما ألام عليه، ومع هذا فالحقيقة إني لست سعيداً، وكذلك هي، ولا أدري لماذا، والآن اذهبي وأيقظيها كي أودعها وسأتبعك.

***

وفي الدهليز التقى بالآنسة بورين، وكانت هذه ثالث مرة يجدها في طريقه وهو يعبر الدهاليز المعتمة، فاحمر وجهها وأطرقت قائلة:

- حسبتك في حجرتك يا سيدي.

فرمقها بنظرة ازدراء ساخرة أذهلتها وسمرتها في مكانها.

ولما دخل حجرة ليزا وجدها جالسة في مقعد وتير، وفي يدها أشغال الإبرة، وفي الوقت نفسه تروي لأخت زوجها آخر النكت الذائعة في بطرسبرج، ولما سألها زوجها عن حالها، أجابته:

- أحسن.

ثم استأنفت ثرثرتها الفارغة على الفور، فانتهز أندريه الفرصة وذهب عند أبيه، فوجده يكتب خطاباً:

وقال الشيخ من غير أن يكف عن الكتابة:

- أراحل أنت؟ قبلني، وشكراً لك.

- ولماذا الشكر؟

- لأنك لم تتردد في فراق زوجتك لأداء واجبك.. أعندك ما تقوله لي؟ تكلم فإني مصغ.

واستأنف الكتابة بعصبية ظاهرة من غير أن يرفع وجهه، فقال أندريه:

- إني آسف يا أبي أن أترك لك زوجتي تثقل عليك فأرجو منك متى حان وقت وضعها أن تدعو طبيباً من موسكو، فقد ملأوا رأسها بأشياء مفزعة عن هذا الحادث الذي تنتظره.

- اطمئن سأفعل لها كل ما ينبغي. والآن هاك رسالة مني إلى كوتوزاو، أطلب منه فيها ألا يحتفظ بك في أركان حربه طويلاً، كي تتمكن من

إبراز مزاياك في مواضع أخرى، وفي هذا الدرج ستجد مذكراتي، وبعد أن أموت تسلمها للإمبراطور. هذا إذا مت وأنت مسافر.

- سأصنع ما تريد...

- وتذكر يا أندريه أنك إن سقطت صريعاً، فسيحزن قلبي، ولكن سأشعر بالخزي إن قصرت في واجبك، والعار أشد مضاضة من الموت والحزن، تذكر هذا!

- لي رجاء أخيراً يا أبي، إذا قضيت في الحرب وكان المولود غلاماً، ربه هنا.

- آه! ألا تريد أن تتركه لزوجتك؟

فتبادل الرجلان نظرة طويلة صامتة، ثم فتح الأب الباب وصاح في صوت مجلجل:

- لقد تبادلنا الوداع، والآن ذاهب!

وأقبلت السيدتان على أندريه، وكانت ليزا شاحبة الوجه جداً، فقبلها. وإذا بها تطلق صرخة هائلة وتسقط مغشياً عليها، فوضعها أندريه برفق في مقعد كبير، ثم اتجه إلى ماري أخته فقبل جبينها، وخرج وأخته تشيعه بنظرتها المغشاة بالدمع ودعواتها.

وكان الأمير الشيخ في مكتبه لم يفارقه، يمسح أنفه ويتمخط بصوت مرتفع كأنه إطلاق رصاص. ثم وقف على عتبة المكتب وظهر عليه الغضب لإغماء ليزا. فهز رأسه ملياً ثم أغلق باب مكتبه بعنف.

الفصل السادس

إلى الحرب

في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٥ كان الجيش مرابطاً في عدد من مدن النمسا وقراها. وفرق جديدة منه تتركز بالقرب من قلعة براو ناو وهذه القلعة هي مقر القائد العام كوتوزاو.

ومن هذه الفرق التي وصلت حديثاً فرقة للمشاة تتأهب لعرض تفتيشي. وكان الجنود قد وقفوا جانباً كبيراً من الليل في إصلاح ثيابهم وتنظيف أسلحتهم، حتى صاروا على أهبة كاملة واصطفوا على أحسن حال. فيما عدا أحذيتهم التي كانت في حالة يرثى لها بعد مسيرة مئات من الأميال. وتجاهل النمساويون طلبات الروس في إعطائهم جلداً يصلح لصناعة الأحذية.

وسر الكولونيل قائد تلك الغرفة من مظهرها. وجعل يمازح الضباط، إلى أن ظهرت عربة القائد العام على الطريق، فامتشق الكولونيل سيفه وصاح:

– انتباه! سلام سلاح!

وكان يرافق كوتوزاو في عربته قائد نمساوي كانت كسوته البيضاء تبدو ناصعة جداً بجوار الكسوة الروسية السوداء.

وترجل كوتوزاو. وحيا الجنود بصوت منخفض، فردوا هاتفين– فلتحيا سعادتكم.

وجعل القائد العام يستعرضهم وبجوار أركان حربه الأمير اندريه بولكونسكي، وهو يوجه تحيات لطيفة إلى الضباط والجنود الذين عرفهم أثناء الحرب مع تركيا، ولاحظ الأحذية البالية في أقدامهم، فأشار إلى الجنرال النمساوي الحليف إشارة ذات معنى. واستمر يتجول بين الصفوف، وعند آخر صف قال أندريه:

– يا صاحب السعادة، لقد طلبت مني أن أقدم لك الضابط المجرد من رتبته دولوخاو، وها هو يا صاحب السعادة.

– دولوخاو! نحن مستعدون لنسيان الماضي إن صدقت الخدمة.

فرمقه الشاب بعينين متوقدتين زرقاوين في جسارة. وقال:

– تكرم يا صاحب السعادة وامنحني الفرصة كي أظهر إخلاصي العميق للإمبراطور ولوطننا.

***

وعاد كوتوزاو في خطوته البطيئة وشردت نظرته إلى عربته. وسر الكولونيل لنجاح لاستعراض فأمر بتوزيع الفودكا على الجنود.

وفي مكتبه اجتمع كوتزاو بالجنرال النمساوي، وطلب من الأمير أندريه أن يقدم إليه الوثائق عن حالة الفرق التي وصلت، ثم قال للنمساوي:

- أريد أن أكرر لك ما سبق لي أن قلته، أنه لو كان الأمر بيدي لانضممت إلى قوات الارشيدرق فرديناند النمساوي الذي يقود الطليعة. وكنت مستعداً بكل ارتياح أن أتنازل له عن قيادة العمليات. فأنا أعلم أن النمسا فيها قواد ممتازون.

وأدرك ضيفه تلك الغمرة المستترة تحت هذا الثناء وقال:

- إن عاهلنا الإمبراطور فرنسوا يقدر غاية التقدير مساهمة سعادتكم في القضية المشتركة، ولكن بطء زحفكم، ربما عاق الجيش الروسي المجيد عن قطف أكاليل الغار التي عودنا عليها.

فضحك كوتوزاو وقال:

- بل إني مقتنع على العكس. بناء على آخر رسالة من الأرشيدرق فرديناند أن جيشكم النمساوي الذي يقوده الجنرال العظيم ماك. قد حصل على تفوق ساحق ولم يعد في حاجة إلينا. اقرأ بنفسك!

وقدم إليه رسالة الأرشيدرق التي تفيض تفاؤلاً، فلما قرأها الجنرال النمساوي. شعر بالحرج لأن الذائع في المدة الأخيرة خلاف ذلك، وقال:

- ولكن يا صاحب السعادة من بعد النظر أن نتوقع دائماً العقبات. وأن نحتاط للظروف السيئة.

فالتفت كوتوزاو إلى الأمير أندريه وقال له:

- يا عزيزي. ضع مذكرة بها خلاصة تقارير جواسيسنا وسلمها لسعادة الجنرال.

فأدى أندريه التحية وخرج لينفذ الأمر. وكان أندريه يشمر بسرور عظيم كلما استغرق في العمل. ولهذا كان كوتوزاو يكلفه بأشق المهام، وكتب إلى والده يؤكد له أن ابنه سيغدو من أعظم القواد يوماً ما.

وفجأة دخل على أندريه جنرال قال له بلا مقدمات:

- أريد مقابلة الجنرال كوتوزاو.

- إن سعادته مشغول.

فدهش الجنرال وكتب بضع كلمات على ورقة أعطاها للضابط الذي دخل بها على القائد العام. فخرج القائد العام واستقبل الزائر الذي قال له:

- أنا المنكود الحظ ماك.

فحياة كوتوزاو باحترام وأدخله مكتبه، وبعد قليل أصدر الأوامر إلى جميع القوات الروسية بأنها ستشتبك مع العدو قريباً.

وأدرك أندريه على الفور خطورة الموقف. فنصف الحملة قد انتهى بالفشل. وأذلت كبرياء النمسا بهزيمة منكرة لجيش ماك، وبعد أيام قلائل سيلتقي الفرنسيون والروس وجهاً لوجه. وخشي أن يفوز مرة أخرى نبوغ نابليون.

ولما عاد أندريه إلى حجرته وجد في الطريق ضابطين من أصدقائه هما نسفيتسكي وجركوف، وكانا يمزحان على عادتهما في مرح، والتقيا بجنرال وضابط نمساويين. فوقف جركوف أمامهم وقال باسما:

- يا أصحاب السعادة لي الشرف أن أهنئكم بوصول الجنرال ماك إلى هنا بصحة جيدة!

فلم يزد الجنرال النمساوي على أن هز كتفيه وقال بالفرنسية:

- مجنون!

وأدرك أندريه ما وراء دعابة جركوف من سخرية لاذعة. فضربه على ظهره، ثم قال لصديقه نسفيتسكي:

- إن صديقنا لا يدري أن خير جنود الجيش قتلوا، وأن قوة حلفائنا سحقت. وأن موقف قواتنا خطير، أن هذه ليست ساعة المزاح.

الفصل السابع

المعركة

عسكرت فرقة نيقولا رستاو بالقرب من براوناو. وأقام الشاب مع قائد الفصيلة دنيساو الذي لم يكترث بهزيمة الجنرال ماك وقضى الليل يلعب الورق، ورآه رستاو يعود في الصباح مطاطئ الرأس يشكو من النحس، ثم يخبر نيقولا أن الفرقة ستبدأ الانسحاب منذ الصباح.

وفعلاً أخذ الجيش الروسي ينحسر عن فيينا وينسف الكباري خلفه وطلائع العدو تتعقبه على مسافة وجيزة، وفي يوم ٢٣ أكتوبر اجتازت القوات الروسية أحد الأنهار، وبينما كان الجنرال قائد المؤخرة بفحص تلا مجاوراً وبجواره نسفيتسكي موفداً من القائد العام إذا بالدخان الأبيض يظهر فوق التل. ثم يدوي صوت انفجار، فصاح الجنرال:

- يا للشيطان! لقد سبقنا الفرنسيون إلى هنا. اذهب يا نسفيتسكي ومر قواتنا بمزيد من السرعة أن يعبروا الكوبري، وليكن الفرسان آخر من يمرون.

وأسرع نسفيتسكي بيد أنه اضطر أن يتوقف في منتصف الكوبري لأن قنابل العدو بالذات تتساقط عليه، فتزاحمت القوات هناك بين خيالة ومشاة في فوضى تامة، وسمع أحدهم يناديه باسمه، وإذا به يلمح دنيساو الذي كان يقذف الجنود بالشتائم لأن كتلتهم سدت طريقه.

وتمكن الضابطان بعد مجهودات كبيرة من الوصول إلى الطرف الآخر من الكوبري، حيث قام نسفيتسكي بأداء مهمته. وساد النظام شيئاً فشيئاً، لأن المشاة مروا أولاً قبل الخيالة وبقيت فصيلة دنيساو في المؤخرة، فأصبحت هدفاً لبطاريات العدو، وتحفز دنيساو لمهاجمة الأعداء، ولكن الكولونيل قائد الفرقة نهاه عن ذلك، وعبرت هذه الفصيلة الكوبري أيضاً، وإذا بالضابط جركوف الذي طرد من هيئة أركان الحرب وأصبح ياورا للأمير باجرايتون قد جاء يحمل أمراً بإحراق الكوبري إلى الكولونيل من ذلك القائد العام لهذا القسم من الجيش، وفي الحال نفذ الأمر واشتعلت في الكوبري النيران.

ومن جهة أخرى لم يستطع الأربعون ألف روسي بقيادة كوتوزاو أن يصمدوا أمام المائة ألف فرنسي بقيادة نابليون، فانسحبوا على طول نهر الدانوب، ولما كانوا في حالة إعياء وتنقصهم المؤونة لم يستطيعوا الدفاع عن فيينا، وانتقلوا إلى الضفة اليسرى من النهر، وهناك ساعدتهم الظروف على كسب موقعة جزئية رفعت روحهم المعنوية إذ التقوا بجيش يقوده الماريشال مورتييه فسحقوه، وأسروا جنرالين من العدو وبضع قطع من المدفعية وراية.

وفي تلك المعركة قتل جواد الأمير أندريه تحته. وأصيب بجروح في يده، فأحب كوتوزاو أن يعبر له عن تقديره، فكلفه بحمل نبأ هذا النجاح إلى إمبراطور النمسا الذي كان قد التجأ إلى برن.

ووصل الأمير إلى تلك المدينة في المساء، وفي ظنه أنهم سيدخلونه على الإمبراطور، بيد أنهم جعلوه ينتظر إلى أن يحيطوا وزير الحربية بالأمر.

وقال له وزير الحربية وهو يغض الخطاب الذي قدمه إليه أندريه:

- هل أتيتنا بأخبار طيبة؟ جميل! ولكن هل هذا نص حاسم؟ أن جلالة الإمبراطور سيستقبلك ولاشك، ولكن غدا بعد الاستعراض، شكراً وإلى اللقاء.

وخاب أمل أندريه بذلك اللقاء الفاتر، فتوجه إلى أحد أصدقائه الدبلوماسي الروسي بيليلبين. فاستقبله الرجل بكل ترحاب، وبعد أن قص عليه أندريه ما حدث، وأبدى له استيائه من تلك المقابلة الفاترة، قال له الصديق:

- أتعلم أنه لا قيمة في الواقع لانتصاركم هذا؟ إن كل الجيش الروسي كان في هذه المعركة ضد الماريشال مورتييه الذي كان يقود خمسة آلاف جندي. ومع هذا أفلت الماريشال من أيديكم ولم تأسروه! فثق أنه الإمبراطور فرانسوا، ولا أي شخص آخر في البلاط سيفرح

لنصركم هذا. أنه أشبه بالانتصار على فرقة من رجال المطافئ، ثم أعلم أن الجيش الفرنسي دخل فيينا، وأن بونابرت يبيت الليلة في قصر شنبرون...

فنزل هذا النبأ على أندريه الصاعقة، واستطرد صديقه يقول:

– أن القيصر يجب أن يقابل ملك بروسسيا، فإن قبل ملك بروسيا الدخول في الحلف استأنفنا الحرب. وإن لم يقبل فيجب التفكير في الصلح.

– أتعني أن الحملة انتهت بالفشل؟

– إن النمسا كانت هي كبش الفداء فولاياتها نهبها الجيش الروسي، وجيشها سحق، وعاصمتها سقطت، لقد طعنت النمسا في صميم فؤداها، فلا عجب أن تشرع في مباحثات للصلح المنفرد مع فرنسا.

***

وأستيقظ أندريه متأخراً في اليوم التالي، وارتدى ثياب التشريفة كي يحضر العرض العسكري. وبعد نهاية العرض استقبله الإمبراطور لحظات خاطفة، لم يسأله فيها إلا أسئلة تافهة عن الانتصار الروسي.

وبعد المقابلة الملكية أعلنه وزير الحربية أن الإمبراطور منحه وسام ماري تريز. وبعد ذلك عاد أندريه إلى صديقه الدبلوماسي، فوجد عربة تحمل حقائبه، ووجد صديقه في غاية الانفعال، وفاجأه بأنباء أخرى سيئة:

- إننا راحلون أن العدو عبر الكوبري الأخير الذي نسى النمساويون أن ينسفوه، وها هو الماريشال ميرا يزحف على برن.

- معنى هذا أن جيشنا سيكون محصوراً.

- هذا جائز جداً وتصور أن الماريشال ميرا والماريشال لأن تقدما بمفردهما نحو هذا الكوبري وهما يلوحان بمندلين أبيضين ويصيحان في الجنود المعسكرة هناك أن الهدنة أعلنت، وحضر الضابط المكلف بقيادة القوة هناك وهو الأمير آروسبرج، وسره أن يجد نفسه محل سرور واحتفاء وابتهاج الماريشالين الفسقونيين ودعواه لاحتساء نخب الهدنة، وفي تلك الأثناء تسربت فصيلة فرنسية إلى داخل القلعة.

- غداً سأرحل.

- ولماذا؟ إن واجبك الأول أن تحمي نفسك، فهيا معنا إلى مدينة المتز الجميلة.

- بل يجب أن أفعل كل ما في وسعي للمساهمة في إنقاذ الجيش من الحصار.

***

ورحل أندريه في تلك الليلة نفسها في الاتجاه الذي سلكه الجيش الروسي على أقصى صور الاضطراب، فهاله أن يرى مئات العربات محطمة بفعل التصادم، والشجار يشتد بين الفصائل المختلفة للتزاحم على الطريق، وهناك جنود آخرون يغيرون على القرى ويعودون محملين بالدجاج، ومنهم من يحمل على كتفيه خروفاً أو غرارة بها أمتعة الفلاحين، وأفلت الزمام من الضباط، وارتسم على وجوههم العار والخزي.

وفي إحدى القرى سمع أندريه أحدهم يناديه ثم رأى نسفيتسكي مطلاً من نافذة، فدخل ووجده هناك يأكل مع ياور آخر وهما في أشد القلق. وسأله نسفيتسكي:

- أهو التسليم والصلح والسلام؟

- لا أدري وأين القائد العام؟

- في المنزل المجاور.

وتوجه أندريه إلى المنزل المجاور فوجد أحد الضابط أركان الحرب، فسأله:

- هل سنسلم؟

- كلا يا أيها الأمير، بل نستعد للمعركة.

وفي تلك اللحظة فتح الباب وظهر على عتبته كوتوزو، يتبعه الأمير باجرايتون، وهو رجل قصير القامة نحيف شرقي الملامح، وكان كوتوزاو يقود باجرايتون إلى الباب، لأنه أكبر جنرالاته، وأغرورقت عينا كوتوزاو، ورسم على رأس باجراتيون علامة الصليب وقال له بصوت أجش:

- إلى الملتقى يا أميري، وكان الله معك وأعانك في مهمتك

وتقدم أندريه من القائد العام وحياه ثم طلب منه أن يسمح له بالالتحاق بجيش باجرايتون، فقال له كوتوزاو:

- كلا، إني بحاجة إلى ضباط ممتازين، لمجابهة الأحداث الخطيرة التي تنتظرنا، فلو قدر لعشر قوات باجراتيون أن تعود إلينا سالمة، لكان علينا أن نعتبر ذلك رحمة من الله ونعمة!

- ولأن مهمته خطيرة، طلبت منك يا صاحب السعادة أن ترسلني معه.

فلم يجبه كوتوزاو واسترد هدوءه العادي وغير الموضوع بأن سأله كيف استقبلوه في بلاط النمسا.

***

لما كان نابليون بونابرت يهدد مواصلات الجيش الروسي، فقد كلف كوتوزار أكبر جنرالاته الأمير باجرايتون أن يقود الطليعة وقوتها أربعة آلاف رجل في زحف سريع يسبق به الفرنسيين إلى مدينة زنايم، وعليه أن يدافع عنها إلى أن تصل كتلة الجيش الروسي.

وتمكن الأمير أندريه بإلحاحه أن يحصل من كوتوزار على الأذن بالانضمام إلى باجرايتون الذي عرض عليه أن يبقى بجواره ليساعده أو يقود المؤخرة لتنظيم الانسحاب، فطلب منه أندريه أن يفحص المواقع أولاً، رجال في الجبهة التي كانت تقترب من بعض المواطنين من الفرنسيين بحيث كان جنود الجيشين يتبادلان الشتائم!

وصعد أندريه فوق تل أشرف منه على مواقع الروس ومواقع الفرنسيين، وهناك وجد بطارية من المدفعية، وتبين له أن العدو يستطيع تطويق الجيش الروسي بسهولة، فأخرج كراسة صغيرة وراح بعد خطة جديدة لتوزيع القوات يعرضها على باجرايتون.

ولم يكد يتم هذه الخطة حتى شق الهواء صفير حاد ووقعت قنبلة بالقرب منه ورفع رأسه ليرى الفرنسيين نشطوا للقتال، والمدافع تقصف من الجانبين، فأدرك أن الموقعة بدأت فعلاً، وأبصر باجرايتون يخرق خط

النار، فأسرع نحوه وقدم إليه تقريره، وصعدا التل معا ووراءهما أركان الحرب، وهناك تبين لهم أن الفرنسيين كسبوا أرضاً على ميمنة الروس، فأرسل باجراتيون فصيلتين لتعزيز ذلك الجانب.

وتوالت بعد ذلك الأنباء السيئة عن تطورات المعركة، ودهش أندريه لأن الجنرال كان يتقبل تلك الأحداث تقبلاً سلبياً، ولكن بهدوء شديد كان يرفع الروح المعنوية في ضابطه وجنوده.

ولما بدد الهواء الدخان اتضح أن الطابور الفرنسي تقدم في زحفه كثيراً، فأشار باجرايتون إلى فصيلتين من القناصة فهجموا على ذلك الطابور وأوقفوا زحفه وغطوا الانسحاب الذي تم بهدوء إلى جهة اليمين، ولكن من جهة اليسار انقلب الانسحاب إلى فرار وتشتت تحت هجمات الماريشال "لان" القوية، فتقدمت فرقة الفرسان وحاولت القيام بهجوم مضاد، وكان دنيساو في الصف الأول منها. وتبعه رستاو، بيد أن المسكين نيقولا رستاو شعر كأن مكنسة كنسته مع حصانه كنسا، وحاول التخلص فوجد ذراعه قد التوى، والدخان يخيم عليه، وكتيبته اختفت، وشاهد المشاة يلوذون بالفرار في الغابات...

وبدا كل شيء كأنه ضاع نهائياً، ثم إذا بالرماة يبرزون فجأة وفي الصف الأول دولوخاو الذي انقض كالشيطان على الفرنسيين، فتراجعوا قليلاً، وبعد ربع ساعة عاد دولوخاو وبيده ضابط فرنسي أسير قدمه للكولونيل وعاد للهجوم.

وكانت البطارية المقامة فوق التل تضايق الفرنسيين كثيراً، فركزوا عليها نيراناً قوية أوشكت أن تقضى عليها نهائياً، وتبين لأندريه أن رجالها البواسل هبط عددهم إلى النصف، فأمرهم بالتراجع عن موقعهم، وساعدهم على سحب مدفعين سليمين، ثم صافح بحرارة اليوزباشي توشين قائد تلك البطارية.

وكان الليل قد اقترب، فأخذت طلقات المدافع والبنادق تتناقص وبحثت القوة الروسية المتراجعة عن الجرحى الذين كانوا يتوسلون للجنود أن ينقلوهم فوق المدافع. وتقدم نيقولا رستاو يحمل بإحدى يديه يده الأخرى وطلب في ضراعة إلى اليوزباشي توشين أن يحمله فوق المدفع، فاستجاب لرجائه.

وشقت الفصيلة طريقها في الظلام بين الهمسات وصرير العجلات وأنين الجرحى وصرخاتهم، ثم توقفوا وسط الطين وأوقدوا المشاعل، وكان نيقولا رستاو ينتفض من الحمى والألم فلم يستطع أن ينام. وجلس بالقرب منه المدفعي توشين ينظر إليه في عطف وإشفاق إلى أن حضر صول وأبلغ اليوزباشي أن الجنرال يطلبه.

وتوجه توشين إلى الكوخ الذي كان باجرايتون يتعشى فيه مع كبار ضباطه ويتلقى منهم تفاصيل ما دار في المعركة، وكان كولونيل الفرقة التي أجرى تفتيشها في براوتاو يبلغ القائد كيف أنه صمد للعدو، وكيف أبلى الضابط دولوخاو بلاء حسنا فاق به جميع أقرانه.

وشكر باجراتيون الضباط جميعاً على بسالتهم ثم قال:

- ولكن الذي لا افهمه لماذا تركنا مدفعين تخلينا عنهما في وسط التل؟

واتجه الجنرال إلى أحد ضباط أركان حربه وقال له:

- أخبرتني أنك ذهبت إلى هناك، فماذا لاحظت؟

- الحقيقة أني وجدت مدفعاً منهما دمر تماماً..

فالتفت باجراتيون إلى أندريه وقال:

- أنت أيضاً ذهبت إلى هناك يابرنس.

فبادر ضابط أركان الحرب يقول:

- لقد تشرفت بمقابلة الأمير هناك.

فأجابه أندريه بجفاء:

- لم يسعدني الحظ بمشاهدتك هناك!

والحقيقة أن ضابط أركان الحرب لم يكن قد ذهب إلى هناك لخطورة الموقع. وعندئذ أمر باجراتيون باستدعاء توشين المدفعي الريفي

الذي كان خجله مساوياً لشجاعته، مما أضحك الضباط ولاسيما جركوف.

وسأل باجراتيون الضابط الخجول:

- لماذا تخليت عن أحد مدافعك؟

فغمغم توشين قائلاً:

- يا صاحب السعادة، لم يكن قد بقى عندي ما يكفي من الرجال.

- كان ينبغي أن تأخذ من قوات الاحتياطي.

وكان في وسع توشين أن يجيبه بأنه لم يكن قد بقى من قوات الاحتياطي أو التعزيز شيء، ولكنه لم يشأ أن يورط ضابطاً آخر فسكت، وعندئذ تدخل الأمير أندريه قائلاً:

- يا صاحب السعادة، لقد وجدت الثلثين من رجال البطارية وخيولها صرعى، ووجدت مدفعين قد دمرا تماماً، ولم تكن هناك أي قوات للتعزيز، واعتقد أن ثبات هذه البطارية وبطولة قائدها ساهما بقسط عظيم في سلامة الجيش.

فرمق باجراتيون أندريه بنظرة طويلة، لأنه رآه منفعلاً على غير العادة، ثم أمر توشين بالانصراف، فشد الضابط على يد أندريه وشكره بحرارة.

أما نيقولا رستاو فكان يتألم ألماً فظيعاً، وفي هذيان الحمى تمثلت له أمه وسونيا وناتاشا، يبتسمن له، ولزمه توشين يمرضه.

ولم يجدد الفرنسيون هجومهم فاستطاعت البقية الباقية من قوات باجراتيون أن تنضم إلى كوتوزاو سالمة.

الفصل الثامن

سحر الذهب

كان الأمير فاسيلي قد نجح في الحصول على مركز باهر في البلاط والمجتمع، فأصبح النجاح بالنسبة إليه حاجة ضرورية، وصار من عادته كلما وضعت المقادير في طريقه شخصية ذات تأثير أن يفكر على الفور إلى أي حد يستطيع ذلك الشخص أن يكون نافعاً له، ويتصرف على هذا الأساس.

وعلى هذا المنوال قال فاسيلي لنفسه:

- ها هو بطرس بزوخاو صار مليونيراً، فلا زوجه ابنتي.

وألقى حبائله حول الشاب الطيب القلب، وبدأ باستخدام نفوذه فعينه مستشاراً للدولة، ومقر تلك الوظيفة الشرفية هو العاصمة بطرسبرج، وكانت الخطوة الثانية بعد تلك اليد الأولى أن دعاه للنزول في قصره بالعاصمة.

ووجد الأمير بزوخاو البدين نفسه محاطاً بسرعة ببطسانة كبيرة يتملقونه، مع أن هؤلاء الأفراد أنفسهم كانوا لا يعيرونه نظرة قبل ذلك.

وأتت إليه كبرى الأميرات بنات عمه محمرة الخدين مطرقة العينين، فاعتذرت إليه عن تصرفاتها السابقة نحوه، ثم انهمرت دموعها وهي تلتمس منه البقاء بعض الوقت في القصر الذي تحملت فيه كثيراً من صروف الزمن.

وتأثر بطرس الطيب القلب وراح يسألها الصفح مع أنه لم يقدم إليها أي إساءة، وفي ذلك اليوم نفسه منح تلك الأميرة هبة قدرها ثلاثين الف روبل مع تصريح بالإقامة في القصر على نفقته الكاملة في موسكو.

وأخذ الأمير فاسيلي يهتم بشئون بطرس كما لو كانت شئونه الخاصة، ولما كان جميع رفاق بطرس في السهر واللهو قد انضموا إلى الجيش وذهبوا إلى جبهة القتال، لم يعد هناك أحد يمضي معه وقته سوى فاسيلي وزوجته وابنته الفاتنة إيلين.

وفي بداية شتاء سنة ١٨٠٥– سنة ١٨٠٦ دعته آنا بافلوفنا إلى إحدى سهراتها، وكان سلوكها معه قد تغير أيضاً مثل بقية الناس، فتوجه بطرس إلى هناك ووجد نفسه بين مجموعة من الجنرالات والدبلوماسيين راقت له الجلسة معهم، ولكن آنا بافلوفنا قادته من يده إلى مجموعة أخرى تتجلى في وسطها الحسناء إيلين فاسيلي، ثم قالت له آنا بافلوفنا:

– أترى كم هي حسناء؟ إن من يتزوجها سيكون أسعد الرجال!

وكانت إيلين ترتدي ثوباً يكف عن عنقها الفضي البديع وكتفيها المرمرين، فبدأ بطرس يفكر جدياً أنها تصلح له زوجة، ولم تفارقه تلك الفكرة طول السهرة، وبعد أن عاد من السهرة لم يستطع أن ينام.

وفي مناسبة عيد إيلين أقام آن فاسيلي عشاء فخماً، ولاحظ بطرس أن الحفلة أقيمت خصيصاً من أجله، لأنه بقي مع إيلين طول السهرة التي أعقبت العشاء وهما بمفردهما، كأنما اتفق جميع المدعوين على عدم تعكير خلوتهما.

ولم يكن بطرس قد كاشف إيلين بحبه، ولم تفلح ابتسامتها المشجعة على جعله يصرح بشيء مبتذل من ذلك القبيل، ولم يجد فاسيلي بدا من التدخل بنفسه فاقترب فجأة، وتناول يد بطرس ويد إيلين وصاح مبتهجاً:

- أخبرتني زوجتي بما بينكما، وأنا أهنئك يا بطرس بهذه الزوجة الممتازة!

ثم قبلهما ونادى زوجته فقبلتهما وهي تبكي فرحاً، وصاح الأمير فاسيلي يعلن النبأ للمدعوين ويأمر بتوزيع الشمبانيا.

ولما صارا وحدهما لم يدر بطرس ماذا يقول: فرفعت بيدها نظارته عن عينيه فتناول يدها ليقبلها، بيد أنها تلقفت شفتيه في الطريق وضغطت عليهما بشفتيها، فأدهشته هذه الحركة المفاجئة التي تناقض تحفظ إيلين

المعتاد، ووجد نفسه مسوقاً بحكم الموقف أن يقول لها من غير إخلاص عميق:

- أحبك.

وبعد شهرين كان بطرس قد تزوج أجمل امرأة في بطرسبرج وأقام معها متمتعاً بملايينه الكثيرة في أفخم قصور أمراء بزوخاو.

***

وفي ديسمبر سنة ١٨٠٥ أرسل الأمير فاسيلي إلى الأمير بولكونسكي العجوز في أملاكه بمنطقة لسيجوري يقول له أنه سيقوم بجولة تفتيشية هناك، وسوف يتوجه مع ابنه أناتول لزيارته وتقديم احترامه العميق، فلما سمعت الأميرة ليزا زوجة ابنه ذلك النبأ قالت بغير روية:

- ها هم الخطاب يأتون إلى ماري من غير أن تتحشم الذهاب إليهم.

فقطب الأمير العجوز حاجبيه، لأنه كان يعتبر فاسيلي وصوليا لا يوثق به، وفي اليوم الموعود كلف خدمه بتكديس أكوام من الجليد على الطريق المؤدى إلى القصر.

وفي ساعة الغذاء كان الغضب ظاهراً عليه، فتوهم أن طبقه غير نظيف وطوح به في السقف، وكان الخادم متمرناً على هذه المناظر

فتلقف الطبق بكل رشاقة وسلمه بكل هدوء إلى كبير الخدم، وتجاسرت الآنسة بورين وقالت له في تودد:

- سمعت أننا ننتظر ضيوفاً.

- ضيوف؟ ومنذ متى كان الأمير فاسيلي ضيفاً؟ أنا الذي وظفته في الوزارة في مبدأ حياته، وأما ابنه فلماذا يأتي؟ ربما كانت ليزا وماري تعلمان؟

فخفضت ماري رأسها واحمر وجهها، أما ليزا فتسللت إلى حجرتها خائفة.

وحضر الأمير فاسيلي وأناتول في المساء ونزلا في الحجرتين اللتين أعدتا لهما، وبعد أن اغتسل أناتول وأتم زينته وتعطر، ذهب إلى حجرة أبيه وسأله:

- أصحيح يا والدي أنها قبيحة إلى الجد الذي يذكرونه؟

- ليس هذا مهماً، اجتهد على الخصوص أن تكون شديد الاحترام واللباقة مع الأمير.

- إني أفزع من التجهم، فإن زمجر سأهرب.

- لا تنس أن مصيرك يتوقف على حسن تصرفك.

وكانت الأميرة ماري قد انسحبت إلى حجرتها وحاولت أن تتغلب على انفعالها، وحضرت إليها الأميرة ليزا والآنسة بورين لتساعداها على تغيير زينتها، فظنت المسكينة أن الثوب الجميل قد يجمل وجهاً قبيحاً، وجعلت تغير تصفيف شعرها، ولكن الأميرة ليزا صاحت بها فجأة:

- كلا... إن هذا لا ينفعك، ثوبك الرمادي البسيط أفضل بكثير.

- بل أتركاني هكذا!

وكانت لهجتها تقطر تعاسة وسخطاً، فخرجت الأميرة ليزا والآنسة بورين وبقيت ماري وحدها، فلم تكلف نفسها مجرد النظر إلى المرآة، بل غمغمت:

- لا فائدة... إنني قبيحة جداً.

وبهذه الفكرة توجهت إلى الصالون عندما حضرت الوصيفة وقالت لها أن الأمير فاسيلي وابنه هناك وأن الشاي قدم فعلاً.

***

ونهض فاسيلي فتقدم إليها أولاً وحياها باحترام عميق، وصافحت أناتول وذهلت لجمال وجهه، أما هذا المفتون بجماله فنفخ صدره ونظر إليها بشرود.

وتولت الأميرة ليزا بثرثرتها الخفيفة إثارة الحديث على الفور، فتكلموا عن سهرات آنا بافلوفنا، وعن إقامة أناتول في باريس، فكانت تلك مناسبة للآنسة بورين لكي تتحدث معه عن بلدها بحماسة وحنين، فقال أناتول في نفسه:

– فتاة لطيفة، إن تزوجت الأميرة فسأجتهد أن تحتفظ بهذه الفرنسية في خدمتها، هذا يجعل الزواج أيسر احتمالاً!

وظهر الأمير بولكونسكي أخيراً في الصالون وهو لم يزل متجهم الوجه، وكانت نظرة واحدة منه كافية ليرى بشاعة زينة ابنته. فسلم على فاسيلي باقتضاب.

وقدم إليه الشيخ فاسيلي ابنه، فقال الشيخ:

– غلام جميل، قبلني يا غلام.

ثم اقترب من ابنته وسألها لماذا أساءت التزين هكذا، وأردف قائلاً:

– في المستقبل أحرم عليك أن تغيري زينتك من غير إذني، أنت قبيحة الخلقة بما فيه الكفاية من غير حاجة إلى زيادتها قبحاً بزينة قبيحة!

ومن غير أن يعير التفاتا إلى دموعها التي كانت تنهمر على خديها التفت إلى أناتول:

- اقترب يا غلام لنتحدث قليلاً، هل ستنضم إلى الجيش؟

- إني ملتحق رسمياً بفرقة ما، أبي يعرف اسمها، ولكنها في الجبهة من دوني!

فقهقه الأمير العجوز ضاحكاً وقال له:

- خدمة تبشر بمستقبل باهر!

ثم نظر إلى فاسيلي وأخذه من ذراعه قائلاً:

- هيا معي إلى مكتبي، ودع هذا الغلام مع السيدات.

وفي المكتب أفضى فاسيلي للأمير العجوز بمراده، فصاح:

- أنا لا أحتجزها بالقوة، فلتتزوج غداً إن كان هذا يروق لها، سأكلمها في الموضوع وإن وافقت...

واستطاع أناتول الجميل أن يترك أثراً عميقاً في نفس الأميرة ماري التي رأته طيباً صريحاً عذب الحديث.

أما الآنسة بورين فكانت تحلم منذ زمن طويل بأمير روسي يقع في غرامها، ويترك نساء بلاده القبيحات كي يخطفها، والأميرة ليزا تناست حالتها وتبسطت مع الضيف الشاب في مرح ودلال، وبطبيعة الحال زاد أناتول غرواً على غروره بهذه العناية المثلثة.

وجلست ماري إلى البيانو، وأسند أناتول مرفقه إلى البيانو وقد افتر فمه عن ابتسامة بدت موجهة إليها، وهي في الواقع موجهة إلى الآنسة بورين التي كان يدوس على قدمها من تحت غطاء البيانو.

ولما انتهت السهرة قبل أناتول يد الأميرة ثم قبل أيضاً يد الآنسة بورين، فاحمر وجهها أمام ذلك التجاوز غير المفهوم لآداب السلوك الرسمية، ثم أراد أن يقبل يد ليزا فرفضت وهددته بسبابتها قائلة:

– عندما يكتب إلى أبوك أن سلوكك تحسن.

وفي تلك الليلة لم ينم نوماً مريحاً عميقاً سوى أناتول! فالأميرة ماري لم تنم من التفكير واللهفة على ذلك الرجل الجميل، والآنسة بورين نزلت تتنزه بضع ساعات في الحديقة الشتوية ولم تعد إلى حجرتها إلا في الفجر، والأميرة ليزا كانت تحلم بالفترة التي كانت الحياة الاجتماعية ميسورة لها، وأما الأمير العجوز فكان يمشي في حجرته وهو يزمجر قائلاً:

– هذه الشقية– لقد أطاش صوابها أول قادم وباتت تتمنى فراقي.

***

وفي اليوم التالي عندما توجهت الأميرة ماري على حجرة أبيها لتحية الصباح ابتسم الأمير العجوز ابتسامة ساخرة وقال لها:

- أظنك أدركت سبب حضور الأمير فاسيلي وهذا التلميذ؟ إنه لم يحضر لسواد عيني أنا، فبماذا أجيب الأمير الذي يطلب يدك لتلميذه؟

فاصفر وجهها وقالت له:

- لا أدري ماذا تريد مني أن أفعل؟

- ليس أنا الذي سيتزوج، قولي أنت ماذا تريدين أن تفعلي.

- لا أريد أن أفعل إلا ما يروق لك يا أبي.

فقاطعها صائحاً بخشونة:

- جميل جداً، سيأخذك من أجل ما تدفعينه من بائنتك، ومن أجل الآنسة بورين.

فخفضت رأسها وأوشكت أن تبكي، فضربها على كتفها وقال:

- إني أمزح، أنت حرة طبعاً، ولكن تذكري أن سعادتك في كفة الميزان، فهم يريدون تزويج هذا الفتى، وهو مستعد أن يتزوج أي امرأة تشتريه بأكبر ثمن، أما أنت فلست محتاجة لثروة أحد، صلي وفكري وقولي لي نعم أو لا!

***

وخرجت ماري فاخترقت وهي تترنح حديقة الشتاء، ثم وقعت عينيها من أطرافها فجأة لترى وراء إحدى الأشجار أناتول والآنسة بورين متعانقين، فوقعت مذهولة، ولمحتها الفتاة الفرنسية فأطلقت صرخة وهربت، وابتسم أناتول وتقدم منها يحييها بصفاقة!

وبعد ساعة حضر خادم يدعوها إلى مكتب أبيها، فوجدت عنده الأمير فاسيلي الذي سلم عليها بكلتا يديه في حرارة، وقال لها:

- إني أعتبرك منذ الآن كابنتي فقولي رأيك أيتها العزيزة.

فنظرت الأميرة ماري إلى الرجلين بعينيها الجميلتين وقالت بكل ثبات:

- اختار ألا أفارقك يا أبي، لا أريد أن أتزوج.

فتأثر الأمير العجوز واجتذبها إلى صدره، وربت على يديها بقوة وقال:

- هذا هو القول الفصل يا عزيزي الأمير فاسيلي، لقد أسعدتني جداً زيارتك.

الفصل التاسع

نابليون في المعركة

في أواسط الشتاء وصلت إلى أسرة رستاو أنباء عن نيقولا، وراح الكونت يقرأ الرسالة وهو في غاية الاضطراب يضحك ويبكي في وقت واحد، فقد حضر نيقولا موقعتين، وأصيب بجرح ورقي إلى رتبة الضابط.

وأشتد شحوب سونيا لنبأ الجرح، أما ناتاشا فتهلل وجهها لأنه نجا من الموت وأظهر شجاعة رقي بسببها في الميدان، ثم نفدت ناتاشا وصية أخيها في خطابه حرفياً فاحتضنت سونيا وقبلتها باسمة!

وبعد أن انتهى ثوران الانفعال الأول، رأى الكونت أن يرسل بواسطة بوريس ستة آلاف روبل كي يتجهز كما ينبغي للضابط، وكان نيقولا بحاجة ماسة إلى النقود، لأنه استدان من زملائه ليقيم حفلات لائقة بمناسبة ترقيته، ولذلك سر كثيراً حين وصله خطاب من بوريس الذي كان يعسكر مع الحرس في أولمتز يبلغه فيه إن يحمل له نقوداً وخطاباً من أبيه.

ووجد نيقولا بوريس وبرج في مسكن مريح وثيابهما في غاية الانتظام، وصحتهما تدل على الإخلاد الطويل إلى الراحة، واستقبل بوريس نيقولا فعانقه بهدوء، وصاح نيقولا رستاو متعجباً:

- كم تبدو عليكما العافية! يظهر أنكما لم تشتركا في القتال.

- وهل اشتركت في القتال؟

فأطلعهما نيقولا على الجرح العميق في يده وعلى وسام القديس جورج الذي ظفر به فعلق بوريس على ذلك قائلاً:

- ونحن أيضاً خضنا معارك رائعة بين مراقص واستقبالات ومآدب، لم يكن ينقصنا شيء، وهذه يا عزيزي هي حياة الحرس!

ثم سلمه كيساً منتفخاً بالنقود، ورسالة من والده بداخلها خطاب توصية إلى الأمير باجراتيون، كي يعينه ياورا، فغضب نيقولا ورمى الخطاب قائلاً:

- ياور؟ وظائف الخدم؟

فضحك الياور بوريس وقال له:

- أما زلت متمسكاً بالمثالية؟

فرمقه نيقولا بنظرة فاترة، وشكره على تعبه وانصرف.

***

وفي اليوم التالي توجه بوريس لتحية الأمير أندريه فأخذه أندريه إلى قصر الإمبراطورية كي يقدمه إلى الأمير دولوجورجوف. وكان الأمير خارجاً

من مؤتمر حربي دافع فيه بشدة عن رأيه في وجوب اتخاذ خطة الهجوم، ولما صافح أندريه صاح به:

- كم كلفني هذا المؤتمر من أعصابي! وأخيراً تقرر الهجوم وسوف ينجح لأن بونابرت أوشك على الإفلاس في الرجال والمعدات. أتعلم أنه كتب إلى القيصر؟ إن ذلك طبعاً بقصد كسب الوقت، سنظفر به يا عزيزي!

فانتهز أندريه فرصة انشراح الأمير وتفاؤله وقدم إليه بوريس وأوصاه به خيراً. وفي هذه اللحظة دعي الأمير ليعود إلى مجلس الإمبراطور فأسرع وتركهما.

وكان ذلك اليوم هو اليوم السابق لموقعة أوسترلتز. وفي تلك الليلة تلقى نيقولا رستاو الأمر كي يكون في الطليعة مع فصيلته، فلفت نظره لغط الأصوات الصادرة عن معسكر الفرنسيين، وسمع آلاف المرات هتافهم:

- يحيا الإمبراطور.

وأشعلت النيران على طول جبهة العدو، وحضر باجراتيون مع دولجوروجوف بنفسيهما ليشاهدا ما يحدث. فقال دولجوروجوف:

- هذه خديعة من مكائد بونابرت. إنه أمر بأحداث هذه الضجة وإيقاد هذه النيران بينما قواته تنسحب.

فأجابه باجراتيون قائلاً:

- لا أعتقد ذلك. اذهب يا كونت رستاو وانظر هل المواقع الفرنسية الأمامية لم تزل في مواضعها؟

فأسرع نيقولا تحت جنح الليل، وبعد بضع دقائق سمعت طلقات نارية في الاتجاه الذي سلكه، فقفل راجعاً وقال للأمير تاجراتيون:

- يا صاحب السعادة، إن مدافع العدو الأمامية لم تزل حيث كانت، وإني أستأذنك يا صاحب السعادة أن أنضم إلى السرية الأولى غداً، لأن سريتي ستكون غداً في قوات الاحتياطي، وأنا أتوقع المعركة غداً.

- إذن تبقى معي لتبليغ الأوامر إلى الوحدات في المعركة.

فانتفض نيقولا سروراً وأدى التحية.

***

وفي الساعة الخامسة صباحاً كان الظلام لم يزل مخيماً والضباب كثيفاً يمنع القوات المتحركة من الرؤية على مدى عشر خطوات، وكانت هذه القوات تهبط عن هضبة براتزن التي كانت تحتلها حتى الأمس، وبقي كوتوزاو في قمتها مع طابور من المشاة.

ووقف نابليون وحوله ماريشالاته فوق ربوة مجاورة يشهد بروز هضبة براتزن شيئاً فشيئاً من وسط الضباط، وقد تخلى عنها جزء من الجيش الروسي ليهبط إلى الوادي نحو المستنقعات. وأخذت الشمس تظهر ببطء فوق الأفق، وبمجرد أن أضاء نورها المنطقة وتبين معالمها أصدر نابليون أمره بالهجوم، فتحركت كتلة الجيش الفرنسي تصعد هضبة براتزن التي هي مفتاح الميدان.

أما كوتوزاو فلم يتحرك بقواته إلا في الساعة الثامنة، وكان في شدة التعب من طول المناقشة التي استغرقت طول الليل مع الجنرالات أعضاء هيئة قيادة حلفائه، وكلهم من رجال البلاط الذين لا يحذقون الحرب، ولهذا كان القائد ذلك الصباح متوتر الأعصاب جداً.

وبدأ طابور المشاة يتحرك في الضباب، هابطاً الهضبة، ثم انقشع الضباب فجأة ليبصروا على بعد أقل من فرسخين قمة الهضبة وقد غطاها الجنود الفرنسيون.

وأصيب أندريه بذهول فأراد أن يستصدر من كوتوزاو أمراً، وإذا بالطلقات تنفجر بالقرب منهم تتبعها صيحات عظيمة، واستولى الذعر على الجنود فركنوا للفرار وجرفوا معهم ضباطهم.

وصاح نسفيتسكي وقد اكفهر وجهه يطلب من كوتوزاو أن يرجع إلى الوراء حتى لا يقع أسيراً، بيد أن القائد العام لم يتحرك وجعل يجفف بمنديله دماً سال على وجهه، واقترب منه أندريه عندما أحاطت بهما

موجة من الهاربين، وساعده على تخليص نفسه من طوفانهم، ثم شاهدا البطاريات تصب نيرانها على الفرنسيين الذين كانوا يستأنفون الصعود.

ورأي أندريه حامل إحدى الرايات يسقط، فانتزع منه الراية واندفع تحت وابل الرصاص صائحاً:

- إلى الأمام أيها الشجعان!

وتبعته كتيبة من الجنود، وكان على مسافة عشرين خطوة من رجال المدفعية الروس الذين اشتبكوا مع المشاة الفرنسيين بالسلاح الأبيض، وإذا بهزة قوية تصيبه في رأسه فيسقط على ظهره ولا يرى إلا صفحة السماء.

وفي الجناح الأيمن لم يتحرك باجراتيون للهجوم إلا الساعة التاسعة انتظاراً الأوامر القائد العام، وكلف نيقولا رستاو بالسؤال عن تلك الأوامر، وفي طريقه إلى القائد العام أصيب نيقولا بصدمة، إذ اعترض طريقه طابور من الخيالة الفرنسية فأسرع متراجعاً وجمح به الجواد خلف قوات الاحتياطي، وإذا به يسمع هناك قصفاً شديداً بالمدافع، فخطر له أنهم تعرضوا لهجوم من الخلف، ثم رأى جموعاً من الروس والنمساويين يركنون للقرار في ضجة شديدة من نيران المدافع المنصبة من هضبة براتزن. وحار نيقولا ماذا يفعل، فجعل يسأل من يلقاهم:

- أين كوتوزاو؟ أين الإمبراطور؟

فأجابه جندي يظهر أنه كان مخموراً:

– أن الإمبراطور جرح جرحاً بالغاً، وقتل القائد العام!

فمشى نيقولا على غير هدى، والسهل من حوله مغطى بالقتلى والجرحى. أما الأحياء فكانوا قد هجروا السهل كله تقريباً تحت نيران الهضبة الفرنسية.

وبعد أن سار ميلين وصل إلى قرية وجد بها كوتوزاو، وكانت المعركة قد انتهت وفقد فيها الروس أكثر من مائة مدفع تركوها سليمة غنيمة للفرنسيين، وآلاف الجنود حاولوا الهرب فوق المستنقعات المتجمدة، فأطلق نابليون مدافعه على الجليد فابتلعتهم المستنقعات، أما الأمير أندريه فوجده الممرضون الفرنسيون جريحاً في الميدان فأخذوه.

وطاف نابليون مع حاشيته من الماريشالات بين الجرحى، وأبدى اهتماماً بحالة أندريه الذي لم يحول عنه عينيه، وأمر نابليون أن يعالجه الدكتور "لاري" جراحه الخاص.

ولما فحصه الجراح الكبير وجد حالته خطيرة، ومن الأفضل أن يترك لعناية أهل الإقليم لأنه لا يتحمل سرعة الحركة مع الجيش الزاحف.

***

في بداية سنة ١٩٠٦ عاد نيقولا ودنيساو إلى موطنهما في إجازة. ودعى نيقولا زميله إلى الإقامة عند والديه بضعة أيام. وكان وصولهما في المساء بعد أن فرغت الأسرة من تناول عشائها. فدخل نيقولا على أطراف أصابعه. إلا أنهم عرفوه على الفور بمجرد دخوله الصالون وتسابقوا كلهم إلى احتضانه.

وجعلت ناتاشا تقفز وتصيح مسرورة. وكانت سونيا في أوج جمالها حين تناولت يد نيقولا وحدقت فيه بحنان. فقال نيقولا وهو يقدم زميله إلى والده الكونت رستاو.

- صديقي دنيساو وزميلي في السلاح.

- مرحبا بك، وإني سعيد جداً أن أراك.

ثم قدمه إلى ابنته فيرا وناتاشا، فقبلته ناتاشا ببراءة وصاحت:

- مرحبا بدنيساو الصغير العزيز.

فسر الضابط الشجاع وأحمر وجهه وقبل يدها.

وفي اليوم التالي حلت الساعة العاشرة والضابطان ما زالا نائمين بسبب تعبهما فذهبت ناتاشا وسونيا والصغير بطرس وطرقوا باب نيقولا ليوقظوه، فارتدى ثيابه بسرعة وفتح الباب، ليجد سونيا تلوذ بالهرب. فسأل ناتاشا:

- لماذا هربت؟

- هذه قصة طويلة! ألا تذكر إنك قبل رحيلك قلت لهما: "سأحبك طول حياتي". أما هي فقالت: "أحبك طول حياتي. أما أنت فإني أتركك حراً من كل وعد".

- سأبر بوعدي. الآن سونيا من الجمال بحيث يكون الإنسان معتوها أن تخلي عنها. وأنت يا صغيرتي العفريتة؟ ألم تزالي على هواك لبوريس؟

فصاحت ضاحكة:

- أنا؟ يا للحماقة! لا أحبه ولا أحب غيره، أريد أن أصبح راقصة!

فأظهر نيقولا دهشة شديدة. فقالت له:

- لا تفزع هكذا، سأخبر بوريس بنفسي ودنيساو؟ أهو طيب؟

- طيب جداً..

- عظيم! ألبس ثيابك، أسرع فستناول الشاي كلنا معاً..

ووجد نيقولا سونيا في الصالون فقبل يدها، وتلاقت عيناهما في حنان نداهما بالدموع بيد أن الأيام التالية بدا فيها أن نيقولا لا يعير سونيا أدنى التفات. بل كان متعطشاً إلى الاستقلال والحرية في تصرفاته.

فقضى الوقت على هواه في استقبالات ومآدب ومراقص. وكان فخوراً جداً بالظهور في ثياب الملازم بسلاح الفرسان الفاخرة المردانة بوسام القديس جورج. ودعى مع صديقه دنيساو إلى أكبر ناد في موسكو لحفل تكريم الأمير باجراتيون، البطل الحقيقي لحملة سنة ١٨٠٥. والذي أظهر براعة فائقة في الانسحاب من أوسترلتز.

وفي ذلك الحفل التقى الشابان بدولوخاو ونسفيتسكي وبطرس بزوخاو. وظل بزوخاو صامتاً طول المأدبة لأيه علم عندما عاد إلى موسكو منذ قليل إن زوجته الجميلة إيلين تورطت في علاقة مع صديقه دولوخاو، الذي أدخله بنفسه إلى بيته.

وبلغ من انشغال بال بطرس بزوخاو أنه لم يقف، ولم يفرغ كأسه عندما شرب الجميع نخب القيصر، فمد دولوخاو كأسه إليه وقال له باسما:

- إذن خذ واشرب هذا نخب الجميلات وعشاقهن!

فلم تطرف عين بطرس، ثم تقدم خادم وسلم إليه قصيدة في تمجيد باجراتيون، كانت توزع على كبار المدعوين. فاختطف دولوخاو الورقة وبدأ يطالعها، فانفجر غضب بطرس الذي ظل مكبوس المأدبة وقال له ببرود:

- أعطني هذه الورقة..

فقال دولوخاو بلهجة من يريد أن يغيظه:

- كلا. بل سأحتفظ بها!

- أيها الشقي. لابد أن تدفع ثمن ذلك.

ثم نهض وغادر المائدة.

***

وقبل نيقولا أن يكون شاهد دولوخاو في المبارزة وناقش شروطها مع نشفيتسكي شاهد بطرس، وفي اليوم التالي التقى الخصمان في غابة سوكلنيك، وكان السلاح المتفق عليه هو المسدس. فوقف المتبارزان على مسافة أربعين خطوة. ثم مشى كل منهما نحو الآخر بإشارة الشاهدين.

وسار بطرس نحو خصمه بسرعة، ومسدسه مصوب إلى ناحية دولوخاو على قدر افتراضه، لأن الضباب لم يسمح لبصر بطرس الضعيف أن يراه بوضوح، ثم لمحه فجأة فأطلق النار.

أما دولوخاو فلم يطلق النار، بل وضع يده فوق جبينه الأيسر وترنح ثم سقط على الثلج، فتأثر بطرس تأثراً عنيفاً وغالب دموعه وأراد أن يقترب من الجريح، لولا أن الجريح وقف، وبعينين يقدح منهما الشرر

صوب نحوه مسدسه، ففاض وجه بطرس بالندم، ورمق دولوخاو بأسى وحزن وأباحه صدره.

ولم تصب طلقة المسدس بطرس، وخارت قوى دولوخاو فسقط وهو يطلق صرخة حنق، وأسرع بطرس يفر كالمجنون.

وتعاون نيقولا ودنيساو اللذان حضرا للمشاهدة في حمل الجريح على زحافة، وسأل نيقولا صديقه الجريح من حاله فأجابه بصوت متقطع:

- أمر نفسي لا يهمني، ولكن أمي! لن تقوى على احتمال ذلك، فأذهب إليها يا نيقولا وأعدهما لهذا النبأ الألم.

ومن هذا الطريق عرف رستاو أن ذلك الشاب الذي يبدو ماجنا يعيش مع أمه وأخته المقعدة، وأنه كان أخاً حنوناً وابناً باراً.

أما بطرس فحبس نفسه في مكتبه وراح يقطعه جيئة وذهاباً وهو في غم شديد إلى أن حطمه التعب والحزن فرقد على الأريكة، وإذا الباب يفتح، ويرى زوجته ترمقه بابتسامة ازدراء. وتقول له:

- ما الذي أفدته بمبارزة صديقك؟ إنك حقاً أبله. والجميع يعلمون هذا!

- اصمتي: اخفضي صوتك! ومن الأوفق أن نفترق.

فخفت صوتها المحتد وأجابته ببرود:

- ليكن. ولكن يجب أن تعطيني ما يلزم من المال!

فقفز بطرس وتناول تمثالاً من الرخام وكاد يقذفها به وهو يصيح:

- اخرجي وإلا قتلتك!

فخرجت الأميرة إيلين مروعة صارخة. وبعد أسبوع رحل بطرس إلى بطرسبرج، وترك لامرأته وثيقة يتنازل لها فيها عن كل أملاكه في روسيا البيضاء، وهي تقدر بنصف ثروته.

الفصل العاشر

قلوب العذارى

شفى دولوخاو من جرحه وتوثقت صداقته بنيقولا الذي قدمه إلى أسرته وأعجب الجميع بهذا الصديق الجديدة ما عدا ناتاشا التي قالت لأخيها إن صديقه لا يعجبها، فقال:

– كي تحسني الحكم على دولوخاو يجب أن تريه مع أمه.

– ربما. ولكني أحس أن هذا الرجل فظ، وكفء أن يحطم كل من يعترض طريقه، ثم أعتقد كذلك أنه يحب سونيا.

وهز نيقولا كتفيه مستخفاً، ولكن الأسرة لاحظت ان دولوخاو يتحرى دائماً أن يكون حيث توجد سونيا. وحين تكون موجودة ينظر إليها بإلحاح يضايق الفتاة.

وفي ذات ليلة تلقت ناتاشا وسونيا دعوة للتوجه إلى حفل راقص، فطلبت ناتاشا من نيقولا ودنيساو أن يأتيا معهما، فصاح دنيساو ضاحكاً:

– كيف لا أذهب يا كونتس ما دامت هذه رغبتك؟

وظهر التردد على نيقولا فالتفت إلى دولوخاو وسأله قائلاً: وأنت؟

فأجابه دولوخاو قائلاً بفتور:

- ربما ذهبت..

وتعجب نيقولا من لهجته، ولكنه لم يعرف السبب إلا بعد انصراف دولوخاو، حينما قالت ناتاشا لأخيها:

- لقد حذرتك، ولكنه لم تصدقني، إن صاحبك طلب يد سونيا، فقالت له أنها تحب شخصاً آخر. وأوصتها أمي إن تتروى، بيد أنها رفضت رفضاً قاطعاً، وأنت لا أظنك ستتزوجها.

فقال نيقولا وقد تأثر أكثر مما كان يظن:

- لا أدري. إن سونيا ملك كريم على حال.

- نعم ملك كريم، وسأرسلها إليك حالاً.

وخرجت ناتاشا ثم أقبلت سونيا بعد دقيقة وهي بادية الاضطراب فقبل نيقولا يدها بحنان وقال لها برفق شديد:

- لقد أعرضت يا سونيا عن زوج مرموق ورجل نبيل النفس.. من أجل خاطري. وأنا طبعاً أكن لك حباً عميقاً، ولكني لم أزل حديث

السن. ووالدتي تعارض في زواجنا، فليس في وسعي أن أعدك بشيء فأطيلي التفكير وراجعي نفسك في الأمر.

فأجابته سونيا وعيناها ترمقانه بالحب:

- لا تقل هذا، فسأحبك دائماً ولا أريد أكثر من ذلك.

ثم مدت إليه يدها ثانية، فقبلها نيقولا بحنان بالغ.

***

وفي المساء ذهبت ابنتا العم إلى الحفل الراقص، وتجلى جمال سونيا التي كانت مزهوة بطلب، الذي رفضته، وسعيدة بالذي قاله لها نيقولا، وأما ناتاشا فكانت عظيمة السرور لأنها ترتدي لأول مرة ثوب سهرة طويلاً في حفل راقص حقيقي، وأخذ دنيساو ونيقولا يتجولان لمشاهدة الراقصين. فقال دنيساو:

- كم ترقص برشاقة هذه الكونتس الجميلة ناتاشا! كم هي جميلة!

فسأله نيقولا باسما:

- عمن تتحدث؟

فأجابه دنيساو بشيء من الحدة:

- عن أختك طبعا.

وعزفت الفرقة الموسيقية لحن المازوركا. فتذكر نيقولا أن صديقه يحب تلك الرقصة، فطلب من ناتاشا أن تدعوه إليها، فأسرعت الصغيرة نحو دنيساو الذي ابتسم لها وتصنع الرفض، فألحت قائلة:

- أرجو منك. وسأغنى لك ذات ليلة كل ما تطلبه مني!

فنهض دنيساو وراقص ناتاشا في أسلوب أثار إعجاب الحاضرين برشاقته وبراعته الفائقة، ولما أعاد ناتاشا إلى مكانها، حياها في رشاقة بالغة وتركها مذهولة من هذه الطريقة الجديدة عليها في الرقص.

وبعد يومين من تلك السهرة تلقى نيقولا من دولوخاو كلمة هذا مضمونها:

"لن أحضر لديك لأسباب تدركها جيداً، وسأقيم الليلة حفلة صغيرة في فندق بريطانيا قبل رحيلي عائداً إلى الجيش، فأرجو أن أراك هناك..

ولما دخل نيقولا صالون الفندق الذي حجزه صديقه للحفلة لمحه أمام مائدة اللعب، يهم أن يوزع الورق، فرمقه دولوخاو بنظرة حادة وقال:

- لم نرك منذ أجيال، تعال العب معنا.

فحاول نيقولا أن يتخلص ضاحكاً وقال:

- ليست معي نقود..

- هذا لا يهم. لي تمام الثقة بكلمتك.

وبدأ اللعب، وخسر نيقولا على طول الخط أمام دولوخاو، ودولوخاو يقهقه ويقول:

- أراك لست خائفاً من اللعب معي مع أنهم يقولون إني أغش في الورق!

وبعد بضع دقائق وصلت خسارة نيقولا إلى خمسة عشر ألف روبل، وظل النحس محالفاً نيقولا إلى أن أوقف دولوخاو اللعب وقد بلغت خسارة نيقولا في النهاية ثلاثة وأربعين ألف روبل، وهو الرقم الذي كان يطمع فيه دولوخاو، لأن الثلاثة والأربعين تمثل عمره مضافاً إلى عمر سونيا.

وجذب نيقولا دولوخاو وقال له على انفراد:

- سوف لا أستطيع أن أسوى هذا الحساب دفعة واحدة.

فقاطعه دولوخاو قائلاً بابتسامة صفراء:

- اسمع، المنحوس في اللعب سعيد في الحب، بنت عمك تحبك.

فقال نيقولا بغضب شديد:

- لا شأن لبنت عمي في هذا الموضوع، أرجو منك ألا تكلمني عنها.

– إذن متى تسلمني المبلغ؟

فقال نيقولا وهو يدير له ظهره:

– غداً .

ثم عاد إلى بيت أبويه حيث كان الجميع ساهرين، ولم يفطن لوجهه المتجهم سوى أمه وسونيا. لأن دنيساو كان مشغولاً كل الانشغال بناتاشا التي كانت تتأهب للغناء على البيانو.

وذهب الشاب فقابل أباه الذي كان عائداً من النادي وقال له إنه يحتاج إلى مبلغ من المال، فصارحه نيقولا بالرقم وهو في شدة الخجل، فهتف الرجل مبهوتاً:

– هه، أتمزح؟

– أبداً، ووعدت بالدفع غداً.

– وما العمل الآن.

فأجهش نيقولا بالبكاء، وقبل يد أبيه طالباً الصفح.

وفي الوقت نفسه كانت مناقشة لا تقل عن هذه خطورة تجري بين الكونتس وناتاشا، لأن الصغيرة اندفعت لاهثة إلى أمها وقالت لها:

- دنيساو طلب يدي، فماذا أقول له؟

- أتحبينه؟ إن كنت تحبينه تزوجيه.

- أنا لا أحبه يا أماه ولكن ..

- إن لم تستطيعي أن تقولي له لا. فسأقولها له أنا.

- إنه لطيف جداً ولا أريد أن أؤلمه.

- سأكلمه أنا.

واندفعت الكونتس غاضبة نحو الصالون، وقالت بصوت أجش لدنيساو:

- إنه شرف عظيم ذلك الذي تعرضه علينا، ولكن ابنتي صغيرة جداً، وثق أنه يؤلمني كثيراً أن أردك خائباً.

فأطرق الشاب المسكين، وكأنه اقترف إثماً، فرق قلب ناتاشا له وبكت، فقال:

- عفوك يا كونتس، ولكني أعبد ابنتك وأسرتك كلها.

ثم كف عن الكلام، وقبل يد الكونتس وخرج من غير أن يلتفت وراءه.

وفي اليوم التالي رحل دنيساو، وصحبه نيقولا إلى أول مرحلة.

ولم يستطع الكونت أن يدبر المبلغ الذي خسره ابنه في القمار فوراً، فحبس نيقولا نفسه ولم يقابل أحداً بضعة أيام، أخته وبنت عمه قلما حصل له أبوه على الثلاثة وأربعين ألف روبل، أرسل المبلغ مع خادم إلى دولوخاو وكلفه أن يأتي منه بإيصال.

وبعد ذلك لحق نيقولا بفرقته في بولندا.

***

بعد موقعة أوسترلتز. كتب القائد العام كوتوزاو إلى صديقه القديم الأمير بولكونسكي، أن ابنه الوحيد أندريه سقط في ميدان الشرف، ولم يعثر له على أثر، فهو مفقود، لا يعلم أحد أهو حي أم ميت. وكانت ماري تراقب والدها وهو يقرأ ذلك الخطاب فأحست أن هناك نذيراً بكارثة عظمى، وصاح الشيخ بصوت ثابت:

- وصلني نبأ فارجع. جرح أندريه ولم يعثر على أثره، يعني مات!

فاقتربت من أبيها وتعلقت بعنقه قائلة:

- فلنبكه مها يا أبي..

فخلص رقبته من ذراعيهما، وصاح محنقاً:

- يا للصوص القتلة! ولماذا هذه المذابح؟ اذهبي وقولي لليزا.

ووجدت ماري الأميرة ليزا مشغولة بالتطريز وهي تبتسم كعادتها، فلم تجد القدرة على أخبارها، فأخذت بكي، وأقلقت هذه الدموع ليزا فانفجرت باكية وقالت:

- أندريه هل وصلتكم أخبار؟

- كلا. أنت تعلمين أننا لا نتلقى خطابات، ونحن لا نعلم شيئاً، ولكن والدي في غاية القلق عليه.

وقررت مع والدها كتمان الأمر عن ليزا إلى ما بعد الوضع، واجتهد الأمير العجوز إلا يغير شيئاً من عاداته التي تسير بنظام محكم، ولكن شهيته قلت، وساء نومه، وجعل جسمه يهزل يوماً بعد يوم.

وكانت الأميرة ماري تصلي من أجل أخيها، وأبت أن تفقد الأمل في حياته وبالرغم من قلة نصيب ليزا من الفطنة، إلا أنها لاحظت أن الجزع يخنق قلوب من حولها، فانتابها القلق، وكان ذلك سبباً في تعجيل الحادث الذي تنتظره.

وفي جوف الليل بعثوا في طلب الطبيب الذي أحضره إلى القصر خدم يحملون الفوانيس على متون الخيل.

وكانت الأميرة ماري ساهرة فسمعت فجأة صوتاً جعلها تنتفض وصاحت:

- أندريه. ولكن هذا محال.

وإذا بأندريه يظهر وقد اشتد شحوبه وهزاله فاكسب ذلك ملامحه رقة ودقة وعانق أخته وسألها:

- ألم تتلقوا خطابي؟

وعجزت ماري من ذهول الموقف السعيد عن الكلام، فتركها أندريه ليذهب مع الطبيب إلى حجرة زوجته، وكان قد التقى به في الطريق.

وكانت ليزا راقدة بين الوسائد وقد أنهكها الألم، فنظرت إلى زوجها في دهشة شديدة، ولم تفهم السر في ظهوره المباغت، فانحنى الأمير أندريه فوقها وقبل جبينها، ووجه إليها بضع عبارات رقيقة، ثم خرج بناء على إشارة الطبيب إلى الحجرة المجاورة، وهناك وصلت إلى سمعه أصوات توجعها وصرخة ثاقبة، ثم صوت بكاء طفل، وانفتح الباب وأطل منه الطبيب وقد اكفهر وجهه غاية الاكفهرار وأشار إليه أن يدخل.

ووجد أندريه زوجته ميتة، وفي أحد أركان الحجرة وقفت خادمة تحمل بين ذراعيها مخلوقاً صغيراً يصرخ باستمرار.. وكانت وفاة الأميرة الصغيرة قد تركت على وجهها تعبيراً صادقاً عن الفزع الصبياني الذي

طالما رآه أندريه فوق سحنتها كلما حدثته عن خوفها من آلام الوضع ومخاطره.

وشعر أندريه بعد فوات الأوان أنه ربما كان أقسى مما ينبغي مع تلك الطفلة، وحزن حزناً شديداً.

وبعد أسبوع من تشييع الجنازة، تولت ماري كفالة الأمير الصغير وذهبت به إلى المعمودية حيث أطلقوا عليه اسم نيقولا.

***

وفي الشهور التالية تغيرت حياة آل بولكونسكي كثيراً. وكانت سنة ١٨٠٦ توشك أن تنتهي. والجيش البروسي مني بهزائم فادحة في كينيا وفي أورشتات. ودخل الجيش الروسي إلى ألمانيا وأخذ يتأهب مرة أخرى لملاقاة نابليون.

وعين الأمير الشيخ بولكونسكي قائداً عاماً للتعبئة في الولايات الثلاث المجاورة، فصار يكثر من الغياب عن القصر، وحرص على الرغم من تقدمه في السن على النهوض بأعباء ذلك الواجب بكل أمانة ودقة.

أما الأميرة ماري فكانت تقضي أكبر فترة من وقتها بقرب الأمير الصغير كما كان يسميه جده، وكانت تتركه أحياناً لعناية الآنسة بورين التي أحبته كثيراً.

أما الأمير أندريه فتخلى عن الحياة العسكرية، وكان لا يتوقع خيراً من تدخل بلاده لمساعدة بروسيا، وجاءته رسالة طويلة من صديقه الدبلوماسي بيليبين أكدت له هذا الرأي، وصورت له الدسائس والمنازعات على القيادة في جيش ينقصه كل شيء، ويعمد إلى النهب والسلب ليحصل على التموين، والمستشفيات غاصة بالمرضى، والمجاعة متغشية بين السكان.

وجاء في خطاب هذا الدبلوماسي أيضاً أن هيئة أركان الحرب تعتبر موقعة أيلاو نصراً كبيراً مع أنها في الواقع انجلت عن هزيمة للروس، لأن الجيش الروسي ترك ميدان المعركة للفرنسيين.

وفجأة حظى أندريه بزيارة من بطرس بزوخاو، لأن بطرس بعد افعتراقه عن زوجته أخذ يهتم بالطواف في أملاكه لتحسين حالة رقيق الأرض والفلاحين، بل كان يعتقهم في كثير من الأحيان، واستدعى وكلاء ضياعه وعرض عليهم مشروعاته التي من أهمها بناء المستشفيات والملاجئ والمدارس وإلغاء العقوبات البدنية، ووعده الوكلاء بالتنفيذ فوراً، ولكنهم في دخيلة نفوسهم كانوا يرونه خيالياً. وأن هذه المشروعات لا تصلح للتنفيذ فتقاعدوا عن تنفيذها.

ولما قام بطرس بجولة أخرى ليرى مقدار تقدمهم في التنفيذ، قام الوكلاء بإعداد استقبالات كفيلة بخداعه وتضليله عن حقيقة عبيد الأرض، وأطلعوه على أحجار الأساس في المؤسسات التي طلب إقامتها،

وحشدوا له وفوداً من الفلاحين لتقديم فروض الشكر له على أفضاله العميقة.

وانطلت الحيلة على بطرس ولم يشأ أن يعود إلى العاصمة من غير زيارة للأمير أندريه الذي لم يره منذ سنتين.

واستقبله أندريه مفتوح الذراعين مبتهجاً:

– يا لها من مفاجأة سارة! أسعدني أن أراك!

ولاحظ بطرس أن أندريه تغير كثير، فابتسامته أصبحت عذبة رقيقة، وعباراته أمست مهذبة لطيفة، بيد أن نظرته فقدت وميضها القديم.

وتحدثا مليا عن الماضي، وعن مشاغل بطرس وعن الحرب وعن أصدقائهما، ولم يظهر أندريه اهتماماً كبيراً بالحديث بالرغم من أنه بذل جهداً كبيراً في الكلام.

وفي المساء توجه الاثنان إلى قصر لسيجوري لزيارة الأمير الكبير، فاستقبلتهما الأميرة ماري في الصالون، وأحسنت مقابلة بطرس.

ولم يحضر الأمير العجوز إلا في ساعة متأخرة جداً. لأنه كان مشغولاً في جولة تفتيشية للتجنيد، وعلى الفور اشتبك في مناقشة حامية جداً مع بطرس، ودافع بطرس عن وجهة نظره بجرأة شديدة، وكان من رأيه أنه سيأتي يوم تختفي فيه الحروب نهائياً من العالم.

وكان الأمير العجوز منشرح الصدر تلك الليلة فتمسك بالرأي المخالف لذلك ولكن من غير حدة، وكان بين الحين والحين يربت على كتف بطرس.

وأظهر بطرس سروراً عظيماً بالمودة التي أظهرها نحوه جميع أهل القصر أثناء إقامته بينهم، وحتى الأمير الصغير نيقولا كان ينظر إليه بود حين يحمله بين ذراعيه.

الفصل الحادي عشر

القيصر ونابليون يجتمعان

سر نيقولا كثيراً بالاستقبال الجميل الذي استقبله به جميع الضباط عند عودته إلى فرقته في بولنده، وكان دنيساو راقداً فقفز من سريره وأسرع نحوه وقبله بحرارة.

ورحلت الفرقة في شهر إبريل سنة ١٨٠٧ فعسكرت في قرية ألمانية مهجورة مهدمة، وكانت الطرق الموصلة غير صالحة إطلاقاً، والحرمان والمرض هبطا بقوة الفرقة إلى النصف أو أقل، وذلك ما لم تفعله بها معارك الحرب، وكان الرجال يفضلون جر أقدامهم بين الصفوف على دخول المستشفيات العسكرية التي يعلمون أنهم لن يبارحوها وهم على قيد الحياة.

وكان الضباط يعيشون في أكواخ الفلاحين نصف المتهدمة، كل ثلاثة أو اثنين معا، ويبذلون ما في وسعهم لتزويد رجالهم وخيولهم بالقوت، ولما كان دنيساو ونيقولا رستاو أشد صداقة مما مضى، فقد سكنا في حجرة واحدة، وأخذ دنيساو على عاتقه ان يرعى شئون صديقه، ويعرض عليه كل عناء مستطاع، ففطن نيقولا أن فشل صديقه في حب ناتاشا أخته هو سبب تلك الرعاية.

وذات صباح في يوم من أيام إبريل عاد نيقولا من خدمته في النوبة الليلية ورقد على فراشه، إلى أن نبهه من خواطره وصول دنيساو الذي اختطف سيفه فجأة وخرج، سمع صوته يصدر أوامر مختصرة لجنوده وهو غاضب، وكان نيقولا في غاية التعب فنام ولم يستيقظ إلا في المساء.

وعلم نيقولا أن دنيساو قاد فصيلة من جنوده واستولى على جزء من الأغذية المتوفرة لدى قسم آخر من الفرقة، وأن ضابط هؤلاء المشاة اتهم ضابط الفرسان دنيساو بتهمة السلب، ولم يآبه دنيساو للتهمة لأن رجاله كانوا في حالة يرثى لها من الجوع.

وفي اليوم التالي أبلغ الحادث إلى الكولونيل، وترتب على ذلك قرار بتقديم دنيساو إلى محكمة عسكرية بتهمة السلب والنهب، فثارت ثائرة دنيساو، بيد أن نيقولا استطاع أن يهدئ من ثائرته شيئاً فشيئاً، فنام واستيقظ في اليوم التالي وهو في غاية الانشراح، إلى أن تسلم في الظهر قائمة الادعاءات ضده!

وهز دنيساو كتفيه وقال لنيقولا أنه صفع الضابط المسئول عن توزيع الطعام على القوات لأنه يختلس الطعام ويبيعه في السوق السوداء، وهو مستعد لمواجهة المجلس العسكري أيا كانت النتيجة.

وفي اليوم السابق ليوم انعقاد المجلس اشتبكت كتيبة دنيساو في مناوشة مع العدو، فقاتل دنيساو في الصف الأول ببسالة فائقة وجرح في

فخذه، وبدلاً من التوجه إلى المحكمة دخل المستشفى، وظل نيقولا لا يعرف عنه شيئاً إلى أن عقدت الهدنة بعد معركة فريدلاند، فطلب الإذن بزيارته في المستشفى.

وكان المستشفى عبارة عن منزل نصف متهدم وسط قرية مهجورة، ولما دخل نيقولا المستشفى فغمت أنفه رائحة تعفن نفاذه جعلته يتردد في الدخول، ورآه طبيب كان يدخن سيجاراً ضخماً فصاح به:

- لقد نجاك الله من الرصاص، فهل تريد أن تموت هنا بالتيفود؟ إن الدخول هنا معناه الموت أيها الشاب، فإلى أين تريد أن تذهب؟

فأفهمه نيقولا أنه حضر لزيارة الميجور دنيساو، فأشار الطبيب إلى جناح الضباط، واضطر نيقولا أن يضع منديلاً على أنفه لمقاومة الروائح الكريهة، وفي قاعة الضباط وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل قصير نحيف مقطوع الذراع قال له على الفور:

- أنا توشين الذي حملك على مدفعه يوم جرحت. انظر! قطعوا مني هذا الشيء!

وأشار الرجل ضاحكاً إلى كمه الخاوي، ثم أرشده إلى دنيساو الذي كان نائماًً، فأيقظه نيقولا، وبعد التحيات الحارة لاحظ أن صديقه يرمقه بابتسامة مغتصبة، ويبدو عليه الضيق، فسأله كيف انتهت مسألة المجلس العسكري، فقال دنيساو في تخاذل:

- يقولون لي أطلب العفو من الإمبراطور وأنا لست لصاً لأطلب العفو، فليحاكموني وسأكشف القناع عن اللصوص الحقيقيين!

فتدخل توشين في الحديث وقال:

- طبعاً طبعاً. ولكن ما داموا أعدوا لك التماساً، فوقعه بإمضائك وأعطه لصديقك الذي لا شك له صلات طيبة بهيئة القيادة.

ورفض دنيساو بغضب ذلك الاقتراح، فلم يلح عليه نيقولا وتحدث معه في أمور اخرى، وعندما هم بالانصراف سأله نيقولا هل تريد أن يكلفه بشيء.

- نعم. انتظر قليلاً.

ثم شرع يكتب وسلم إلى نيقولا الالتماس الموجه إلى القيصر قائلاً:

- سلم هذا نيابة عني، بما أن السوط لا يمكن أن يحطم الفأس.

وابتسم نيقولا ابتسامة عصبية وحمل التماس صديقه، ثم طلب من الكولونيل الإذن بالتوجه إلى تيليست كي يرفع الالتماس إلى القيصر، وكان تعويله على مساعدة زميله بوريس الذي كان قد ترقى وبرز في صفوف الحرس القيصري.

ووجده نيقولا في حفلة قصف ولهو مع رفاقه، وترك بوريس أصحابه ليسمع من فم نيقولا موضوع دنيساو، ثم عقب عليه قائلاً:

– أن الإمبراطور شديد جداً..

فصاح به نيقولا قائلاً:

- تكلم بصراحة ألا تريد أن تصنع شيئاً؟

- بل بالتأكيد سأصنع كل ما هو ممكن..

ثم دعا نيقولا ليتعشى مع رفاقه، فرفض وانصرف وهو يحدث نفسه:

- بوريس لا يريد أن يصنع لي شيئاً، فكل شيء بيننا انتهى، سأقدم بنفسي الالتماس إلى القيصر، وما دمت في ثيابي المدنية فلن يوقفني أحد.

وفي صباح اليوم التالي تقدم بقدم ثابتة إلى البيت الذي يقيم فيه القيصر اسكندر، وصعد درجات الشرفة بكل جرأة،ثم دخل قاعة كبيرة فسألوه ماذا يريد.

- التماس إلى صاحب الجلالة..

- إن جلالته على وشك الخروج، فأحضر فيما بعد، ومن صاحب الالتماس؟

- الميجور دنيساو.

- وأنت؟ ضابط؟

- ضابط. الكونت رستاو.

- هذه جرأة بالغة! كان يجب أن تسلك الطريق الرسمي في تقديم الالتماس.

فأجتاز نيقولا القاعة الغاصة بالضباط في ملابس التشريفة الكبرى وهو مطأطئ الرأس يرتعد خوفاً من مواجهة الإمبراطور الشديد فينتهي ذلك بالقبض عليه، وعندئذ سمع أحداً يناديه باسمه.

- أنت هنا؟ وفي ثياب مدينة؟

وكان هذا هو الجنرال الذي تتبعه فرقة نيقولا، فارتبك الشاب وحاول أن يفسر له الموقف، واطمأن لما وجده لدى الجنرال من بشاشة وتسامح، فبسط أمامه قضية دنيساو كلها، فقال القائد:

- إني أرثى له، فهو شاب شجاع، أعطني الالتماس.

وحدثت حركة في تلك اللحظة بين الضباط، وظهر القيصر في ثيابه العسكرية وقد علق على صدره الوشاح الأكبر من الليجيون دونير الفرنسي ونظر فيما حوله ثم تبادل بضع كلمات مع الجنرالات الموجودين، ومن بينهم قائد نيقولا، فتقدم منه الجنرال وخاطبه بصوت منخفض، ولما ابتعد عنه قال القيصر بصوت يسمعه الجميع:

- هذا مستحيل يا جنرال، لأن القانون أعلى من القيصر وسلطاته!

- ثم ابتعد الإمبراطور مسرعاً فوق جواده تتبعه كوكبة من انضباط انضم إليهم نيقولا، ووصل الموكب إلى حيث اصطفت كتائب الحرس الروسي والحرس الفرنسي للاستعراض.

وفي نفس الوقت ظهر من الجانب الآخر موكب من الفرسان يتقدمه شخص عرف فيه نيقولا نابليون بونابرت، تبادل الإمبراطوران التحية بكل مجاملة، ثم ترجلا عن جواديهما وتصافحا.

وذهل نيقولا حين رأى العاهلين يقفان كما يقف صديقان، بينما هتافات الجنود من الجانبين تشق الفضاء.

- يحيا الإمبراطور.

ثم طلب نابليون من القيصر أن يسمح له بإهداء صليب من الليجيون دونير إلى أشجع جندي روسي بين جنود حرسه، فابتسم

القيصر والتفت إلى الأمير كوزتفسكي الذي كان يقف أمام جنوده وسأله بالروسية كي يفهم الجنود الكلام:

- لمن تقترح أن يهدى صليب الليجيون دونير، لأنه أشجع الجنود؟

فتردد الأمير لحظة وجال ببصره بين الصفوف، ثم صاح بصوت ثابت:

- النفر لازاريو!

فظهر جندي من بين الصفوف تقدم خطوة إلى الأمام ثم تصلب في مكانه، وقد شحب وجهه من شدة الانفعال وتعلقت عيناه بالقيصر.

وتناول نابليون صليباً له شريط أحمر من حاجب كان يقف وراءه ثم نظر إلى القيصر كي يفهم الجنود الروس أنه يفعل ذلك برغبة القيصر وحسب اختياره، ثم مد نابليون يده فثبت الوسام على صدر الجندي الذي ظل متصلباً لا يحول عينيه من وجه عاهله القيصر.

وبعد انتهاء الاستعراض ابتعد الإمبراطور ثم انفرط عقد الصفوف، وجلس الروس والفرنسيون معاً إلى موائد أعدت من قبل واحتل لازاريو مكان الشرف، وتلقى التهيئة باللغتين من جنود الفريقين.

***

ووقف نيقولا عن بعد يشهد هذا المنظر الغريب الذي تآخى فيه أعداء الأمس القريب، وتذكر دنيساو والمستشفى وما فيه من قذارة وعفونة تغثى النفس، وتذكر بونابرت الذي يرى القيصر يحبه ويحترمه فجال بخاطره الشك في جدوى كل هذه الحروب التي يذهب ضحيتها آلاف من القتلى والمشوهين.

ونبهه من خواطر الحزينة ألم الجوع، فدخل مطعماً غاصاً بضباط الجيشين، ووجد هناك زميلين تابعين لقيادته عينها، فتحدثوا معا عن ذلك الصلح الذي أغضب معظم الضابط، لأن العدو بعد معركة فريدلاند كانت تنقصه المؤونة والذخيرة، فلو ثبت الروس لقضوا على عدوهم.

وشرب نيقولا أكثر مما أكل فزاد اضطراب أفكاره، ولما سمع ضابطاً روسيا يقول إن وجود الفرنسيين فيه إذلال للروس صاح غاضباً:

- كيف تنتقد قراراً اتخذه مولانا القيصر؟ نحن جنود، وواجبنا هو الطاعة لا الانتقاد، علينا أن نقاتل إلى أن نموت من غير تفكير، هذه مهمتنا!

فأراد ضابط ثالث أن يخفف حدة التوتر فصاح مازحاً:

- نسيت شيئاً هاماً أيضاً من مهمتنا..

- وما هو؟

- ألا نسكر حتى لا نفكر..

فضحك نيقولا وصاح بالساقي أن يوزع الشراب على الجميع على نفقته، وجعل يشرب معهم ويصخب حتى فقد رشده تماماً..

الفصل الثاني عشر

قلوب متقلبة

انقضى عامان بدت فيهما الصداقة الجديدة بين سيدي القارة الأوربية نابليون واسكندر وقد ازدادت عراها توثقاً حتى في الوقت الذي أعلن فيه نابليون الحرب على النمسا، بدليل أن القيصر أرسل قواته إلى الحدود النمساوية كي يظاهر عدوه السابق وصديقه الحالي.

وقضى الأمير أندريه هذين العاملين في تنفيذ إصلاحات بين فلاحي ضياعه لم يفلح بطرس بزوخاو في تنفيذ مثلها بسبب عدم مثابرته فألغى السخرة واعتق العبيد ونشر التعليم الإلزامي بين أطفال الفلاحين.

ووهذه المشاغل لم تمنعه من متابعة الحوادث السياسية التي كانت الطبقة العالية في العاصمة تبدو منصرفة عنها إلى ملذاتها الخاصة.

وساءت الحالة الداخلية لدى آل رستاو لأنهم كانوا يعيشون في مستوى من الترف والبذخ، سواء في الريف أو في موسكو، فقبل الكونت وظيفة في بطرسبرج كي يزيد بها موارده، بيد أنه مضى في خطة الكرم والبذخ في العاصمة أيضاً كسابق عادته، فلم تخفض مصروفاته.

وعين برج ضابطاً في الحرس، وظفر بوظيفة مجزية، فقرر أن يطلب يد فيرا، بيد أنه وجد عناء في الحصول على موافقة أبيها، الذي ساءت أحواله يوماً بعد يوم، ولهذا لم يكن يدري كيف بدفع بائنة ابنه.

وكانت سنة ١٨٠٩ هذه هي السنة السادسة عشرة من عمر ناتاشا، وهي أيضاً السنة التي وعدها بوريس تروبتسكوي أن يتزوجها فيها كما قال لها في سنة ١٨٠٩، ولكن بوريس منذ رحل إلى الجيش لم يقابل آل رستاو، بل إن أمه لم تزرهم بعدها، ولما استقرت الأسرة في بطرسبرج، توجه بوريس لزيارتهم، وفي عزمه بالرغم من كل شيء أن يفهم ناتاشا جيداً أن ألعاب الطفولة لا ينبغي أن تكون لها ثمرات.

وما أن وقعت عينه على الشابة حتى ارتسمت على وجهه علامات الإعجاب مما جعلها تبتسم، وقال لها وهو يقبل يدها:

- كم ازددت جمالاً!

واتسعت الفرصة أمام ناتاشا كي تراقبه عن كثب وهو يتحدث إلى أمها الكونتيس، فوجدته يتحدث بصوت عذب رقيق، وشفتين مقفلتين، وابتسامة تميل إلى السخرية، وهو يطري ملذات العاصمة الروسية.

واستأذن في الانصراف بعد عشر دقائق، مشيعاً بنظرة تحد من ناتاشا، ومع أنه أحس تماماً أن الشابة لم تزل تعجبه كثيراً، ألا أن تفكيره

العملي نبهه إلى أنها ليست ذات ثراء، وأنه لا يمكن أن يتزوجها من غير أن يحطم مستقبله، ولهذا قرر ألا تذهب بعد ذلك لزيارة آل رستاو..

ومع هذا، لم تنقض إلا أيام قلائل حتى عاد للزيارة، وأصح يمضي هناك جميع أيامه، وكان ظاهراً أن ناتاشا تسكن له نفس مشاعرها القديمة، فهي تغني بصوتها الرخيم كلما طلب منها، وتطلب منه أن يكتب لها بضعة أسطر في ألبومها، وكانت ترفض الكلام عن الماضي كي لا تستمتع إلا بالحاضر الذي تراه جميلاً غاية الجمال.

وتحت تأثير هذا السحر لم يجسر بوريس على مواجهة المستقبل، وكان ينصرف كل يوم وقد ازداد حيرة على حيرة، وفي ذات مساء قالت ناتاشا لأمها:

- أريد أن أحدثك عن بوريس، أتجدينه مناسباً؟

- طبعاً، أنت سلبت لبه، ولكنك لا يمكن أن تتزوجيه لأنك لا تحبينه فيما أعلم.

- وإن كانت لي رغبة في ذلك؟

- إني أكلمك الآن كلاماً جدياً، وأؤكد لك أن هذا لن يؤدي إلى شيء، ثم إني سأجعل بوريس يفهم أنه يحضر إلى هنا أكثر من اللازم كلا يا أماه، لا تقولي له شيئاً، سوف لا أتزوجه، ولكن دعيه يحضر، أرجوك.

بيد أن الكونتس لم تأبه لهذا الرجاء، ومنذ اليوم التالي تحدثت على انفراد مع بوريس، فلم يظهر بعدها في القصر أبداً.

***

وشغلت الأسرة بالحفل الراقص الذي أقامه أحد كبار رجال الدولة ودعيت إليه أسرة رستاو، فكان هذا الاستعداد شاغلاً لناتاشا عن غياب بوريس، وكان جمالها ملحوظاً بين زحام المدعوين، وسرها أن تجد من بينهم بطرس بزوخاو الذي كان قد دعدها بتقديم الراقصين إليها، ولمحت هناك أيضاً الأمير أندريه بولكونسكي، بيد أنه مر أمامها ولم يعرفها، وكان هناك أيضاً بوريس إلا أنه تصنع عدم رؤيتها.

وافتتح الإمبراطور الرقص زيادة منه في تشريف صاحب الدعوة، دعا أحد الياوران الأميرة إيلين للرقص، وتبعهما أزواج آخرون، فوقفت ناتاشا ترمقهم في حسرة وحسد، واقرب في هذه اللحظة بطرس بزوخاو من الأمير أندريه وقال له باسما:

- لماذا لا تدعو كونتس رستاو الصغير للرقص؟

- بكل سرور، وأين هي؟

وتبع بزوخاو فوجد نفسه أمام ناتاشا يقدها الصغير، فسلم على أمها ثم دعاها أن ترقص معه، فأضاء وجه الفتاة بالسرور، ورقص الاثنان رقصاً أنيقاً، وشعر أندريه أنها بارعة في الرقص على غير ما كان يتوقع، حتى أنه

أسف لانتهاء الفالس، ولما عاد بها إلى أمها أحس بنفسه يعود إلى الشباب والحياة.

ولم تكف ناتاشا عن الرقص طول الليل، لأن توفيقها في رقصتها الأولى جعل الكثيرين يتزاحمون على دعوتها، ولم تستطع قبول جميع الدعوات فتركت جانباً منها لبنت عمها سونيا، وزاملها أندريه في رقصة الكويتون، وأعجب بتوهج عينيها وتألق ابتسامتها، وبرشاقتها وخفتها، وبدأ يفكر جدياً في الزواج منها ولاسيما عندما عقد المقارنة بينها وبين المحاضرات فوجدهت تفوقهن بلا جدال.

وفي ختام تلك الرقصة اقترب الكونت رستاو من أندريه ودعاه لزيارته في قصره، وسأل بعد ذلك ابنته هل هي سعيدة بالرقص، فكان جوابها الشافي عبارة عن ابتسامة سحرت عقل أندريه.

***

وتعقبت أندريه خيالات هذه السهرة، فلم يكف عن التفكير في كونتس رستاو الصغيرة الفاتنة، وأحب أن يراها في بيتها بين ذويها، فاستقبلوه ببساطة ومودة خالصة كأنه صديق قديم، فلمس قلبه ذلك الاستقبال وقبل الدعوة للعشاء بكل سرور في تلك الليلة.

وأثناء السهرة طلب أندريه من ناتاشا أن تجلس إلى البيانو، وأظهر إعجاباً عميقاً بالمغنية الشابة لاحظه أعضاء الأسرة.

ولم يغمض له جفن تلك الليلة، لأن طيف ناتاشا المشرق كان يتمثل له أينما ولي وجهه، وكأنما هذا الطيف أضفي على حياته قوة جديدة.

ولم يخطر بباله أنه عشق ناتاشا، ولكن منظرها الساحر كان يمد وجوده بطاقة جديدة ويفتح له آفاقاً جديدة، فقال لنفسه:

– أن بطرس على حق، فلكي يسعد الإنسان لابد أن يؤمن بالسعادة، وأني الآن مؤمن بها!

وبعد بضعة أيام حضر سهرة أقامها العروسان برج وفيرا، وكان بطرس مدعواً أيضاً، أما زوجته الكونتس إيلين فكانت تعتبر آل برج أقل من المستوى الذي يليق أن تختلط به، وبعد قليل حضر بوريس ثم سائر أسرة رستاو.

ولم يتأخر أندريه عن انتهاز الفرصة للحديث مع ناتاشا، ولم يفت بطرس الذي كان يلعب الورق أن يلحظ الانفعال على الفتاة، فشعر بعدم ارتياح.

وكانت فيرا أختها الكبرى لاحظت أيضاً اهتمام أندريه بأختها، فوجدت من المناسب في غضون السهرة أن تقول لأندريه أن ناتاشا طلبها الكثيرون ولكنها لم تجد حتى الآن من يفوز بإعجابها، وأردفت:

- حتى بوريس الذي تعرفه، والذي لابد أنه حدثك عن غرام الطفولة بينهما ...

فاحمر وجه أندريه بولكونسكي وقال:

- إن غراميات الطفولة أمرها مفهوم.

ولكن فيرا أصرت على تحذيره، ولاسيما من غرامها ببوريس، فلم يأبه لذلك واتجه نحو ناتاشا كي يجاذبها الحديث.

***

وقضى أندريه الأيام التالية كلها عند آل رستاو، وقد أدرك كل إنسان لأجل من كان يحضر، وهو نفسه لم يكن يخفى مقاصده، وكانت ناتاشا تكاد تطير من السرور، وعندما تجد نفسها بمفردها، معه، كان وجهها يشحب، وكأنها تتوقع منه ألا فضاء بسر يتودد في البوح به.

وذات مساء، بعد رحيل الأمير، سألتها الكونتس عن الموضوع، فقالت:

- أرجو منك يا أمي ألا تسأليني عن شيء، فأنا مضطربة جداً والأمير يسمعني ثناء مستطابا، وهو شديد العطف والإخلاص والمودة، ولكني لم أشعر من قبل بمثل هذه العاطفة، وأحسب مصيري قد تحدد بالتقائي به في ذلك المرقص، كم أنا سعيدة!

وفي ذلك المساء بالذات ذهب أندريه إلى استقبال لدى الأميرة إيلين، حضره أمير أجنبي كان الضيف المستديم لربة الدار، وكان حضور هذا الأمير مثار سخط بطرس بزوخاو، الذي زاد سخطه بالتفكير في العاطفة التي يبدو أنها نشأت بين ناتاشا وأندريه.

وراح بطرس يقارن بين حظه وحظ أندريه فشعر بحزن عظيم، وإذا به يلتقي وجهاً لوجه بأندريه فيراه مشرق الوجه بالسرور، لا يلقى بالاً لتجهم بطرس، ثم يأخذ بطرس لينتحي به ناحية ويقول له:

- يا عزيزي، لقد حضرت خصيصاً لأقول لك إني أحب! فأكمل بطرس جملته متنهداً:

- ناتاشا...

- أجل، ولكني لم أكن أصدق أن يحدث هذا، لم يعد في مقدوري أن أعيش بدونها، فهل تعتقد أنها ستحبني؟

- أظن أن ناتاشا رستاو لؤلؤة! كنز حقيقي، وتحبك...

- لا أريد مزاحاً.

- أؤكد لك أنها تحبك.

- اسمع ما عندي فيجب أن تعرف حقيقة شعوري، إن الدنيا تنقسم عندي إلى قسمين: القسم الذي هي فيه، ويشرق فيه النور والأمل، والقسم الآخر الذي لا توجد فيه، فهناك البرد والظلمات.

- مفهوم، والبكاء وصرير الأسنان!

- إني سعيد جداً وواثق أنك ستفرح لسعادتي.

- طبعاً طبعاً.

وشاركه فرحه وابتهاجه، متناسياً حظه العاثر.

ورأى أندريه أنه يجب قبل أن يتحدث إلى ناتاشا، أن يسافر لزيارة والده كي يحصل على موافقة الأمير بولكونسكي العجوز.

***

وصفى الأمير العجوز لابنه في هدوء ضاحك كان يخفى تحته سخطاً شديداً..

- إن الفتاة لا تمتاز بثراء ولا بمركز رفيع، ثم إنك لم تعد صغير السن، وصحتك ليست على ما يرام، والفتاة حديثة السن جداً، ولا تقدر على رعاية ابنك الصغير، فأرى أن تؤجل هذا الزواج عاماً، تسافر فيه وتعالج نفسك، وإن وجدت هذا الحب قاوم فعل الزمن تزوجها، وهذه كلمتي الأخيرة.

وقرر أندريه أن يخضع لإرادة أبيه، وعاد على تلك النية إلى العاصمة، حيث بادر بالتوجه إلى آل رستاو.

واستقبلته ناتاشا وأمها بكل ترحاب، وبعد التحيات المعتادة طلب من الكونتس أن يحدثها على انفراد، فرمقت الفتاة أندريه بنظرة مضطربة ثم انسحبت، فقال أندريه للكونتس بمجرد انفرادهما:

– لي الشرف أن أطلب يد ابنتك.

فقالت الكونتس في سرور واضح:

– هذا شرف عظيم، وأنا قبلت، متأكدة من أن زوجي... ولكن كل شيء في الواقع يتوقف على رأي ابنتي...

– أن أذنت لي فاتحتها...

فمدت إليه الكونتس يدها فقبلها باحترام، وقالت له:

– أن زوجي سيوافق، ولكن أبوك؟

– يوافق كذلك بشرط ألا يتم الزواج إلا بعد سنة...

– إن ناتاشا لم تزل صغيرة جداً في الواقع، ولكن سنة؟!

فلما رأت أندريه يتنهد استطردت قائلة:

- سأرسل إليك ابنتي.

ولما ظهرت ناتاشا بعد بضع دقائق تقدم منها أندريه مطرق النظر وقال لها:

- إني أحبك منذ رأيتك في ذلك المرقص، فهل تحبينني؟

وتناول يد ناتاشا برفق فتركتها له وهي تقول بانفعال مكبوت:

- أجل، إني سعيدة جداً...

ورأى أنها ستبكي فجذبها إليه برفق وهو يغوص بعينيه في عينيها.

- لقد أخبرتك والدتك بلا شك إن زواجنا سوف لا يتم قبل سنة.

- ولماذا هذا الانتظار؟ هذا فظيع! سيقتلني ذلك الانتظار غماً!

وانبثقت دموعها، ولكنها لما رأت وجهه العطوف قالت:

- سأفعل كل ما تريد.

***

وبقى موضوع الزواج سراً، ولم تقم حفلة للخطبة، وكان أندريه يحضر كل يوم، ويظهر أمام الناس تحفظاً كبيراً نحو ناتاشا، فمع أنه كان يعتبر نفسه مرتبطاً بها بغير تفكير في رجوع، إلا أنه كان يعتبرها حرة في

التراجع عن وعدها في حدود السنة، فيجب أن يهيئ لها السياج الكافي لحريتها.

وعشية رحيله حضر أندريه مع بطرس، وأثناء انشغال بطرس بالحديث مع الكونتس، سأل أندريه ناتاشا هل تعرف بطرس، وهل يعجبها؟ فقالت:

- نعم أعرفه ولكنه كثير الشرود.

- إنه طيب القلب جداً، وقد استودعته سرنا، تعديني أثناء غيابي أن تلجئي إليه إن حدث لك أي شيء، وهو فعلا كثير الشرود والنسيان، ولكنه كريم النفس جداً.

وكان الفراق قاسياً على ناتاشا، فجعلت تطوف البيت بوجنتين متقدتين ونظرات زائغة، ولما قبل أندريه يدها للمرة الأخيرة، قالت بجزع:

- لا ترحل!

فانتفض أندريه وتردد قليلاً، ثم استجمع شجاعته ورحل، وظلت ناتاشا على حالها من الجزع أسبوعين، وفي نهايتهما خرجت من وحشتها فجأة، وعادت إلى مرحها الطبيعي، ولمكن تلك الهزة العنيفة غيرت نفسيتها.

وكانت رحلة أندريه إلى سويسرا، ومن هناك كتب إلى ماري يخبرها بزواجه القريب من ناتاشا، ويرجوها أن تتدخل لدى الأمير العجوز لتقصير مهلة السنة بمقدار ثلاثة أشهر.

ولما فاتحت ماري الأمير العجوز قاطعها قائلاً:

– اكتبي إلى أخيك أن ينتظر حتى أموت، ولن يطول انتظاره.

وحاولت أن تهدئه فصرخ في وجهها:

– قولي له يتزوج، فما أعظمها مصاهرة! قوم أذكياء أغنياء! زوجة أب جميلة لنيقولا الصغير، اكتبي إليه أن يتزوجها غداً، وسأتزوج أنا أيضاً الآنسة بورين! حتى تكون له هو أيضاً زوجة أب! ولترحلي أنت أيضاً عن البيت مصحوبة بالسلامة!

***

وبعد هذه المناوشة العنيفة لم يتحدث الأمير في الموضوع، وأرسلت ماري إلى أندريه تخبره بالرد العنيف الذي تلقته على طلبها، واجتهدت أن تخفف عليه الوقع ووعدته أن تعاود الكرة حتى تلين فتاة الأمير العجوز.

الفصل الثالث عشر

سونيا وناتاشا

رقى نيقولا رستاو سنة ١٨٠٩ إلى قائد فصيلة في فرقة بافلوجراد وأصبح من العسكريين المحترفين، مما جعل أصدقاءه من موسكو يتهيبون من خشونته، أما رؤساؤه ومرؤوسوه فكانوا يحبونه ويقدرونه.

وكانت والدته تكتب إليه كثيراً في موضوع سوء حالة الأسرة المالية وتعرب له عن رغبتها الملحة في قدومه. وكان نيقولا مستريحاً إلى حياته الهادئة في ثكنات الأقاليم بعيداً عن دوامات المجتمع، ولا رغبة له في التورط في الأمور المالية والحسابات والمتاعب، وكان ينظر إلى وعده لسونيا نظرة تحرج.

وفي سنة ١٨١٠ سمع بخطة أخته، وأرسلت أمه تلح عليه في الحضور لأن والده الكونت رستاو كان فريسة سهلة لخداع موظفيه وخدمه.

وبعد عشاء فاخر ودع به ضباط الفرقة نيقولا وداعاً حماسياً، عاد إلى بيت ذويه، فوجد والديه ظهرت عليهما السن قليلاً وثقلت عليهما الهموم كثيراً، ووجد سونيا وقد زادها السرور بلقائه جمالاً فتركت في

نفسه أثراً عميقاً، وصار أخوه الصغير بطرس فتى جميلاً مرحاً ذكياً، أما ناتاشا فكانت تبدو جمة السرور والابتهاج ولا تمل من ترديد الثناء على الأمير اندريه وكيف أنه خير الرجال وأنها تحبه كثيراً.

وأراد نيقولا أن يتخلص من موضوع الحسابات الذي استدعته أمه بسببه بأسرع وقت، فتحدث فيه إلى وكيل الدائرة، الذي أصفر لونه منذ أول كلمة، وبعد لحظة أمسك نيقولا بتلابيب الوكيل وقد اشتد غضبه وألقى به إلى الشارع صائحاً:

- يا لص! اذهب ولا تريني وجهك!

وفي اليوم التالي قال الكونت لابنه وهو يبتسم في شيء من الارتباك:

- لقد أخطأت بثورتك ضد الوكيل، فالمبلغ الذي لم يثبته في الدفاتر موجود في الصفحة التالية ولكنك لم تتمهل حتى تنظر فيها.

- إنه لص، أنا واثق من هذا!

وكان الكونت يعلم أكثر مما يعلم أي إنسان إنه أساء تدبير ثروة زوجته، فاضطرب وطلب من نيقولا أن يستمر في مراجعة الحسابات، فقال الشاب:

– كلا يا أبي، أنا لا أفهم في الحسابات شيئاً، فليذهب الوكيل إلى الشيطان، وكذلك النقود والدفاتر!

ولما سألته الكونتس هن رأيه في سندين دين بتوقيع الأميرة تروبتسكايا بمبلغ ألفي روبل، قال لها بصراحة:

– أنا لا أحب الأميرة ولا ابنها الرفيع بوريس، ولكنهما كانا يوماً من أصدقائنا، فلا يليق أن نقاضيهما!

وارتاحت امه كثيراً عندما رأته يمزق وثيقة الدين.

***

ولم تتحسن أحوال الكونت بوجود ابنه نيقولا. أجل أن الأسرة أقلعت عن إقامة الحفلات الفاخرة، ولكن المصروفات ظلت ضخمة بسبب معدات الصيد والهدايا الثمينة في أيام الأعياد، ومآدب العشاء التي يدعى لها الحي كله والعاب الورق التي يخسر فيها الكونت آلاف الروبلات، فلم يكن في استطاعة آل رستاو أن يتصوروا مستوى للحياة غير ذلك، الذي يقودهم إلى الخراب الأكيد.

وكانت الكونتس تدرك تلك الحقيقة تماماً، ولا ترى سبيلاً إلى تحاشي هذه الكارثة سوى تزوج نيقولا من وارثه غنية. بيد أنها في الوقت نفسه كانت ترمق بعين الأسف نمو الميل المتبادل بين ابنها وسونيا.

وكانت حفلات عيد الميلاد مناسبة سعد فيها جميع شباب الأسرة بأنواع كثيرة من اللهو والسرور، وتنكر كل واحد وواحدة في زي خاص. فتنكرت ناتاشا في زي الفرسان الذين ينتمي إليهم أندريه، وتنكر نيقولا في زي تاجرة عجوز، وبطرس الصغير تنكر في زي سيدة تركية ترتدي الياشمك، أما سونيا فاختارت أن تكون جارية جركسية.

وركبوا في صحبة من الأصدقاء المتنكرين قافلة من الزحافات حملتهم بكل سرعة إلى بيوت معارفهم من الجيران، وكان تنكر سونيا ملائماً لها جداً، إلى حد الإعجاز، فقال نيقولا لنفسه لما رآها:

– ما أبدعها. هل أنا أبله حتى أظل متردداً؟

وكان القمر لم يزل متوارياً، والزحافات تنزلق في صمت تحت جنح الظلام، فانحنى نيقولا على سونيا وهي ملتفة بعباءتها وضمها إليه وقبلها في حنان بالغ.

ولما رجعوا إلى البيت قال لأخته:

– لقد استقر عزمي أخيراً.

فصاحت مسرورة:

- أخيراً! هذا جميل. لو أني كنت غاضبة من سلوكك نحوها، وسونيا تستحق كل سعادة، وقد صارحت أمي بذلك، ولكنها ساخطة على هذا الحب إلا أني سأدافع عن قضيتك!

وبعد العيد بزمن وجيز أعترف نيقولا لأمه بالحب الذي يكنه لسونيا وقال لها أنه راغب في الزواج منها، فصارحته الكونتس أنه حر في الزواج، ولكنها لن توافق هي وزوجها على هذا الاقتران.

وتدخل الكونت برفق على عادته فتوسل إلى نيقولا أن يرجع عن هذا العزم، فهو لا يستطيع أن يكره ابنه على التخلي عن سونيا ليتزوج امرأة غنية، وهو يعتبر نفسه المسئول عن سوء إدارة الثروة.

وفي ذلك المساء بالذات وجهت الكونتس لوما عنيفاً إلى سونيا، ووصفتها بالتآمر والعقوق نحو من أحسنوا إليها!

وهكذا عاد نيقولا في شهر يناير إلى فرقته حانقاً معتقداً أن سونيا دون غيرها هي التي تستطيع إسعاده، وعزم على أن يتزوجها بمجرد إحالته إلى التقاعد.

وبعد رحيل نيقولا سادت الكآبة حياة آل رستاو وتعذبت سونيا كثيراً لغيابه، ولما تبديه الكونتس نحوها من عداء صريح. وكانت ناتاشا تنتظر في ضيق عودة أندريه من الخارج، ولم تفهم السر في هجره لها كي

يطوف ببلاد أوروبا، مع أن حياتها كلها منصرفة إلى تذكر خطيبها والتعلق به.

ولهذا السبب كانت خطابات أندريه فياضة الحيوية متعددة الألوان. أما خطاباتها فكانت جافة متشابهة لأن قلمها لم يستطع أن يترجم كل ما كانت تحسن التعبير عنه بلسانها وابتسامتها.

وضاق صدر الكونت بحزن ابنته وابنة أخيه، فأخذهما إلى موسكو لتغيير الجو، وترك في الريف زوجته لأنها كانت مريضة، ونزل الثلاثة ضيوفاً على ماري دي متريفنا التي كانت دعتهم لزيارتها منذ وقت طويل.

***

وفي بداية الشتاء وصل إلى موسكو الأمير العجوز بولكونسكي مع ابنته ماري، وكانت السن قد نالت منه وضعفت ذاكرته، ويثور لأتفه معارضة يبديها أحد زائريه، فيسب العصر وأبناءه!

ولم تختلط ماري بالمجتمعات، وكان صدرها يضيق بصحبة الآنسة بورين التي أخذ أبوها يعاملها برعاية غير عادية، ومن جهة أخرى كانت جوليا كاراجوين لا تهتم بشيء منذ ورثت ثروة أخيها سوى الذهاب إلى المجتمعات، ولهذا لم تكن الأميرة ماري تقابل أحداً إلا زوار أبيها الذين يحضرون من وقت لآخر ولا يعيرونها التفاتاً.

وانتهزت فرصة حضور بطرس بزوخاو في إحدى تلك المرات وسألته عن رأيه في ناتاشا خطيبة أخيها، فخيل إليه أنها تخفي وراء سؤالها سوءاً فقال:

- لا أدري ماذا أقول لك، فطباع الفتيات من الصعب إدراكها، ولكني أستطيع أن أؤكد لك عن ثقة أنها فاتنة ظريفة.

- كم أحب أن أراها وأتمنى أن أحبها! قل لها إني أريد التعرف بها كي أستطيع أن أقدمها إلى أبي.

ومن جهتنا قالت ماري ديمتريفنا لناتاشا:

- إن العجوز بولكونسكي هنا فيجب أن تزوريه.

ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بصراحتها المعتادة:

- وأنت؟ من تريد أن تقابل؟ تروبتسكايا الكثيرة الشكوى والبكاء؟ إنها هنا مع بوريس الذي سيتزوج جوليا كاراجوين بمناسبة ميراثها الكبير من أخيها! أم بطرس بزوخاو؟ أنه فارق زوجته ولكنها طاردته، وأما أنا فسآخذ البنات إلى الخياطة، إذ لابد أن يرتدين الثياب على آخر موضة وخصوصاً ناتاشا، وأهنئك من كل قلبي يا جميلتي، فالأمير أندريه الذي عرفته وهو طفل شاب جميل، أما أبوه فغريب الأطوار ولا يريد أن يتزوج ابنه، ولكن كل هذا يمكن تسويته. وبهذه المناسبة

أبدت أخت خطيبك رغبتها في التعرف إليك، وستذهبين إليها غداً مع أبيك.

وأمام هذا الطوفان الجارف من الألفاظ، سكتت ناتاشا، لا عن خجل بل لأنها كانت لا تحب أن يتدخل أحد في شئونها، ومع هذا رضيت أن تذهب مع أبيها لزيارة الأمير بولكونسكي العجوز.

***

وأبدى الكونت شيئاً من الرهبة من تلك المقابلة للعجوز الغريب الأطوار، لهذا قال لابنته في الطريق بين الجد والمزاح:

- فليتولنا الله برحمته!

ولما قبل للأمير بولكونسكي أن الكونت وابنته حضرا لزيارته غضب ورفض أن يقابلهما وصرخ في ابنته كي تستقبلهما بدلا منه، فأسرعت الأميرة ماري وأدخلت الأب وابنته إلى الصالون الكبير.

وحياها الكونت بكل احترام رسمي، ثم قال لها:

- هذه هي مغنيتي الجميلة، وإني آسف لأن الأمير متوعك، فإن سمحت لي سأترك ناتاشا في رعايتك لتتعرف إليها، وسأذهب للقيام بزيارة في هذا الحي ثم أعود بعد ربع ساعة.

وكان سعيداً بالإفلات كي يتحاشى كل احتمال لمواجهة الأمير، أما ناتاشا فلم ترق في عين ماري التي وجدتها لعوباً مغرورة، وكذلك لم تعجب ماري ناتاشا، لأنها وجدتها قبيحة الشكل فاترة.

وجعل الحديث يتعثر بصعوبة بين المرأتين، إلى أن حدث ما أدهش ماري جداً، إذ برز الأمير العجوز فجأة في الروب دي شامبر وطاقية النوم البيضاء، وصاح وهو يفحص ناتاشا من قمة الرأس إلى أخمص القدم:

- آه الآنسة هي الكونتس رستاو فيما أعتقد؟ لا تؤاخذيني! كنت أجهل... أنك شرفتنا بالزيارة ... فعفوا.

وكان يتكلم بلهجة تتم عن نفاذ الصبر وضيق الصدر، حتى إن ماري لم تجسر على التطلع إلى أبيها ولا إلى ناتاشا. ثم تراجع شيخ من غير أن يقول أكثر من ذلك، فنهضت ناتاشا وقد تأذت من هذا الاستقبال، ومن الحديث الذي لم تقل فيه الأميرة ماري كلمة واحدة عن أندريه، كأنها تتجاهل كل صلة بينها وبينه.

ومع هذا لم تشأ الأميرة ماري أن تتركها تنصرف وهي في هذه آلة المؤلمة، وقالت لها:

- يا عزيزتي ناتاشا، إني سعيدة جداً لأن أخي التقى بك و... فقاطعتها ناتاشا بلهجة تقطر سخرية لاذعة:

- ربما لم يكن هذا هو الأوان المناسب للخوض في هذا الموضوع.

ثم استأذنت وقد تندت عيناها بالدموع.

***

ولما قصت ما حدث على سونيا، حاولت أن ترفه عنها قائلة:

– وما شأنك أنت بما يقولون؟ كل هذا سيتلاشى يا عزيزي... فتأوهت ناتاشا وقالت:

– لماذا بالله لا يعود اندريه؟

وظلت عيناها محمرة بالبكاء طول العشاء، ولم تفلح ماري ديمتريفنا في إدخال السرور عليها، فقررت أن تأخذ ضيوفها إلى الأوبرا تلك الليلة.

ولما دخلت الجماعة القاعة التي تموج بلابس السهرة والمجوهرات والثياب العسكرية، استأثرت الفتاتان ابنتا العم بالانتباه العام، وتركزت الأبصار كلها على ناتاشا التي لم تزل ثائرة بالغضب والحزن.

– انظري. ها هو بوريس وجوليا والأميرة تروبتسكايا في أحد الألواج من الواضح جداً أنه خطبها.

ورأت ناتاشا رأس بوريس الجميل فوق جوليا، فقالت لنفسها:

- إنه يحدثها عني، وليته يعلم كم يبدو لي الآن تافها هو والآخرون!

وأشاحت بعينيها فلمحت في وسط الصالة دولوخاو وقد أحاط به عدد من الضباط، فنبه الكونت رستاو سونيا لوجوده، قائلاً لها:

- ألا تذكرين دولوخاو يا سونيا؟ لقد عاد أخيراً من القوقاز بعد أن قضى مدة وزيراً لأحد أمراء فارس.

وفي هذه اللحظة دخلت اللوج المجاور سيدة فائقة الجمال أعجبت بها ناتاشا بغير إرادتها، عندما رأتها تبتسم للكونت الذي حياها.

وقال الكونت لابنته:

- هذه زوجة بطرس بزوخاو!

- يا لها من آية!

ثم ارتفع الستار، فتركزت جميع الأنظار على المسرح.

وفي فترة الاستراحة اقترب ضابط أنيق من لوج إيلين، وأشار لها خلسة نحو ناتاشا قائلاً:

- إنها بارعة الجمال.

ففطنت ناتاشا إلى أقواله وأن لم تسمعها، وابتسمت برغمها، فقال الكونت:

- هذا أخوها أناتول الذي يشبهها كثيراً.

واقترب الشاب دولوخاو من غير أن تتحول عيناه عن لوج آل رستاو، ثم عاد إلى أخته قبل الفصل الثاني والتقت نظراته مرة أخرى بنظرات ناتاشا. وقامت إيلين الجميلة بتقديم أخيها للكونت وللشابتين، فجلس الشاب بجوار ناتاشا، وقال لها أنه كان يتمنى منذ زمن طويل أن يعرفها، وظل وهو يتحدث يبتسم لها بتودد، فلم تتمالك ناتاشا نفسها من الإعجاب به، فقال لها:

- إننا يا عزيزي الكونتس ننظم حفلة رقص تنكرية، وستحضرين، أليس كذلك؟

وكان صوته ناعماً متلطفاً، حتى أنها لم تستطع أن تجيب واكتفت بالابتسام وهي تغض من بصرها. وفي نهاية التمثيل وهو يساعد ناتاشا على الصعود إلى العربة أبقى يده فوق ذراع الفتاة، فاحمر وجهها وهي تنظر إليه لآخر مرة.

***

ولم تشعر ناتاشا بحقيقة الموقف إلا بعد أن عادت إلى بيتها إذ استطاعت ذكرى خطيبها أن تردها إلى الواقع. فقالت لنفسها:

- ماذا فعلت؟ لقد ضعت!

وحاولت أن تسترد هدوءها، إلا أن ابتسامة أناتول الجميل ظلت تتعقبها أينما ذهبت وتزيد من اضطرابها. وتحت ضغط هذا الشاب دعت أخته إيلين رستاو إلى إحدى سهراتها ليتمكن من الاجتماع بناتاشا، وذهبت إيلين إلى الكونت ودعته هو والجميلتين إلى حفلة الاستقبال الكبرى التي تقيمها في ذلك المساء نفسه.

وانتحت بناتاشا جانباً وقالت لها:

- أتعلمين أن أخي أناتول لم يعد ينام منذ رآك؟ لماذا تحمرين هكذا يا جميلتي!؟ ليس معنى معنى أنك مخطوبة أن تعيشي في معتقل..!

فقالت ناتاشا في نفسها:

- أنها تعلم أني مخطوبة، ففي استطاعتها أن أقبل دعوتها من غير تحرج.

أما ماري ديمتريفنا فلم تترد من التصريح بأن إيلين ليست من طراز النساء الذي يجمل بأهل التصون أن يختلطوا به.

ولكن ما دمتم قد دعيتم فاذهبوا هذه المرة...

وبمجرد أن دخل الكونت رستاو مرقص الحسناء إيلين لاحظ بامتعاض أن بين الموجودين شخصيات معروفة بمجونها الفاضح.

أما ناتاشا فشعرت بسرور ممزوج بشيء من الخوف والاضطراب عندما رأت أناتول، ولم يتردد أناتول في دعوتها لمراقصته.

وبعد انتهاء الغالس قادها إلى الحجرات الخالية المجاورة للصالون الكبير، ثم صارحها بحبه، فقالت له بصوت ضعيف:

- لا تقل هذا، فأنا مخطوبة.

ثم تركته هاربة نحو الصالون الكبير وفي أعقابها نظراته الملتهبة.

ولم تستطع أن تذوق النوم تلك الليلة، وظلت تسأل نفسها في وجل:

- أيهما الذي أحبه أندريه أم أناتول؟

وفاجأها الفجر قبل أن تصل إلى حل لهذا السؤال المحير. وبعد الغداء سلمتها إحدى الوصيفات خطاباً بصورة حافلة بالغموض، ففضته في مخدعها، ووجدت فيه السطور التالية:

- يجب أن تحبيني وإلا مت. إني أحبك. فإن أحببتني فسوف يتغلب حبنا على جميع العقبات، ولن يحول شيء دون سعادتنا.

وأعادت تلاوة الخطاب عشرين مرة خلال النهار، وفي كل مرة تقول لنفسها:

- لم يعد هناك أدنى شك أنه هو الذي أحبه وسأتزوجه.

وتذرعت بصداع كي تعتذر عن الخروج واعتكفت في حجرتها تحتضن الرسالة، وهي تكاد تجن من جيشان عواطفها.

ولما عادت بنت عمها بعد السهرة وجدت ناتاشا نائمة بثيابها على الأريكة، ولمحت على المنضدة خطاب أناتول، فتناولته وقرأته وهي نهب لأعنف العواطف ثم بكت.

- إنها إذن لم تعد تحب الأمير أندريه؟ هذا مستحيل! لاشك أنها فتحت هذا الخطاب وهي لا تعلم من الذي أرسله.

واستيقظت ناتاشا في تلك اللحظة، ورأت دموع سونيا والخطاب بين يديها، فقالت بكل هدوء:

- لم يعد في استطاعتي أن أخفى عنك الحقيقة يا عزيزتي. إني أحب الأمير أناتول وهو الذي سأتزوجه حتماً.

فذهلت سونيا وغمغمت قائلة:

- والأمير أندريه؟

فهزت بنت عمها رأسها سلباً. فصاحت سونيا:

- هل نسيته؟ أنك تمزحين! تنسين أندريه في ثلاثة أيام؟

- الحمد لله إني اكتشفت حقيقة قلبي قبل فوات الأوان، إن الله يحبني إذ أبعده عني هذه المدة وقضى بتأجيل الزواج، وأشعر الآن أني لا أحب أندريه، وإني كنت دائماً أحب أناتول.

- هذا فظيع. تروى! أتوسل إليك!

- لقد ترويت بما فيه الكفاية وانتهى الأمر. أحب أناتول وأنا بهذا سعيدة. سعيدة. إلى حد الجنون. ضعي يدك على قلبي لتشعري بانتفاض جسمي كله.

- هذا فظيع. سأروى كل شيء لأبيك...

فقاطعتها ناتاشا بحزم:

- سونيا. إن فعلت شيئاً من هذا ستكونين عدوتي.

- ولكن ما الذي حدث؟ ولماذا لم يحضر إلى هنا لطلب يدك؟

فدهشت ناتاشا لهذا السؤال ولم تدر بماذا تجيب. فقالت سونيا:

- لو أنه كان رجلاً شريفاً لحضر إلى هنا وأعلن نواياه بصراحة، أو لانقطع عن مقابلتك. فكري في أبيك. وفي أمك. وفي نيقولا.

- أتجرؤين على القول بأنه ليس شريفاً! أنا لا أريد أن أخاصمك. ولكن اذهبي الآن من هنا حتى لا أفعل ما أندم عليه.

وبمجرد خروج سونيا كتبت ناتاشا بغير تردد خطاباً إلى الأميرة بولكونسكي تعلنها فيه أنها قد استردت حريتها وعدلت عن الزواج من أخيها أندريه، وكلفتها أن تبلغ ذلك إليه وإلى كل من يعنيهم الأمر.

***

التقت ناتاشا بأناتول بعد يومين لدى آل كاراجوين ولاحظت سونيا أنهما يتحدثان باهتمام بالغ، وفي ذلك المساء نفسه قالت ناتاشا لبنت عمها:

- كنت مخطئة يا عزيزتي في إساءة الظن به...

- وما دليلك؟

- سألني هل أنا حرة؟ وسر سروراً عظيماً لما عرف إنني فسخت خطبتي لأندريه.

فقالت سونيا بحزم:

- إنك طلبت مني ألا أفاتحك في هذا الموضوع أو أخوض فيه وما دمت أنت قد بدأت فإني أقول لك إني لا أشعر بذرة من الثقة في هذا الشاب وإني ارتعد خوفاً عليك منه.

- ليكن، أنا الجانية على نفسي، وهذا موضوع لا يعني أحداً منكم والآن اتركيني من فضلك، فإني أكرهك.

وبعد هذا الانفجار أخذت ناتاشا تتجنب سونيا، ولكن سونيا دهشت جداً لغرابة سلوك بنت عمها، لأنها كانت تبدو كمن تترقب أحداً من نافذة الصالون المطلة على الشارع، ثم لمحت بعد ذلك الوصيفة تدس إلى ناتاشا خطاباً آخر، فقالت لنفسها:

- إنها ولا شك تستعد للهرب معه، فكيف تحول دون ذلك المصاب؟

واستقر رأيها بسرعة، ولما كانت تكره أن تشي بها إلى عمها أو إلى ماري ديمتريفنا، فقد اعتزمت أن تقضي الليل بطوله في الدهليز كي تحول دون هرب ناتاشا.

وكان تقديرها في محله لأن ناتاشا قد وعدت أناتول أن تقف في الساعة العاشرة مساء عند الباب الخارجي لسلم الخدم والاصطبلات وسيحضر الشاب ليأخذها في عربة مقفلة إلى فارسوفيا عاصمة بولنده، ومن هناك إلى الخارج، وكان قد أعد جميع الأوراق اللازمة وجوازات

السفر واقترض عشرين ألف روبل من أخته إيلين للاستمتاع بتلك المغامرة.

وكان دولوخار قد ساعده في تجهيز تلك المعدات، إلا أنه لم يتردد في نصحه:

- أتريد رأيي! أرجع عن كل هذا يا أناتول، لأن هذه المغامرة سخيفة وخطرة، أنا واثق أنك ستنجح في اختطافها والهرب بها، ولكن سيعلم بعد ذلك إنك متزوج فعلاً، وهذا سيكلفك ثمناً غالياً.

- ولو أيها الصديق! أسمع وجيب قلبي الذي يقفز كالمجنون رغبة في هذه المعبودة!

فأجابه دولوخاو بلهجة لاذعة:

- وعندما تنفد نقودك وأنت في الخارج وقد صدر أمر بنفيك؟ من أين ستجد المال الذي تنفقه عليها بعد ذلك بقية حياتكما؟ فهز كتفيه وقال:

- بعدها أترك لها الباب مفتوحاً، وأقول لها إن الرواية انتهت!

***

وركب الاثنان العربة المقفلة إلى الباب الخلفي لقصر ماري ديمتريفنا، ثم صفر دولوخاو، فظهرت على الفور وصيفة ناتاشا وقالت بصوت منخفض:

– أدخلا إلى الفناء حتى لا يراكما أحد، ستأتي سيدتي حالاً.

فدخل أناتول ووجد نفسه في الفناء أمام حاجب من الخدم طلب منه أن يتبعه، وكان دولوخاو واقفاً في الخارج فلما رأى ذلك صاح فجأة:

– احذر يا أناتول! خيانة! ارجع!

وقاوم دولوخاو البواب الذي هم بأقفال الباب وأخذ أناتول إلى الشارع، ودفعه إلى داخل العربة دفعاً.

***

وجلية الأمر أن ماري ديمتريفنا كانت قد فضحت المؤامرة لأنها رأت سونيا مضطربة باكية، فأجبرتها على البوح لها بكل شيء، فأسرعت ماري ديمتريفنا وأقفلت ناتاشا باب حجرتها بالمفتاح ودبرت مع البواب والوصيفة والحاجب أمر إدخال أناتول إلى فناء المنزل، وهو ومن معه، ولا يسمح لأحد بالخروج.

ولما علمت أن أناتول وصديقه أفلتا دخلت على ناتاشا وأمطرتها بالتوبيخ الجارح فجعلت ناتاشا تبكي وتتشنج وجسدها كله يهتز وتصيح:

- اتركوني! سأموت! لن أستطيع الحياة!

فقالت لها ماري أنه يجب إخفاء كل شيء عن الكونت رستاو خوفاً عليه من الصدمة، فسكتت ناتاشا وكفت عن البكاء، ولكن هذا الكبت لدموعها سبب لها ارتفاعاً في الحرارة استمر طول الليل.

وفي الصباح كتبت ماري ديمتريفنا إلى بطرس بزوخاو كي يحضر لديها لمسألة تتعلق بالأمير أندريه وخطيبته، وكان بطرس بزوخاو يكن لناتاشا عاطفة لا يجسر على مصارحة نفسه بها، فأسرع إلى قصر ماري ديمتريفنا وأصغى للقصة وقد فغر فمه، غير مستطيع أن يصدق أذنيه ثم قال:

- كيف بالله يمكن أن تفضل العزيزة ناتاشا على الأمير أندريه غرا مثل أناتول؟

وشعر برثاء لصديقه واحتقار لناتاشا، وتذكر مأساته مع امرأته فقال:

- ترى هل جميعهن سواء في الحماقة؟

وفجأة صاح كمن تذكر شيئاً هاماً:

- ولكن أناتول متزوج!

- وهذه ثالثة الأثافي! يا له من وغد سافل! إنها تجهل ذلك، فيجب أن تبلغه إليها بنفسك الآن.

وجرت ماري ديمتريفنا مع بطرس بزوخاو إلى مخدع ناتاشا الذي لم تغادره منذ الليلة السابقة، وتطلعت إليه الفتاة وهي تتساءل خل جاءها عدواً أم صديقاً، وهو زوج أخت أناتول، وفي الوقت نفسه هو الشخص الذي أوصاها أندريه أن تلجأ إليه في كل أمر يهمها أثناء غيابه، وقالت لها ماري ديمتريفنا:

- إنه يعرف كل شيء، ويعرف أكثر مما نعرف.

وشعر بطرس بشفقة عميقة على الفتاة المسكينة التي جعلت تنظر إليهما كما ينظر الأرنب الجريح إلى كلاب الصيد التي ستنقض عليه، وبذل مجهوداً ضخماً ليغالب التقزز الذي شعر به نحو مهمته، إلى أن قال بصوت رهيب:

- يا عزيزتي ناتاشا، اصفحي عني لما سأسببه لك من ألم، ولكن أقسم لك بشرفي أن شقيق زوجتي الأمير أناتول متزوج!

فأصيبت ناتاشا بالذهول وأشارت إليهما بيدها أن يتركاها.

وانصرف بطرس هناك ليبحث عن أناتول في كل مكان فلم يعثر عليه إلا في المساء في صالون إيلين، ووجد إيلين في غاية السرور للفصل الذي حدث وكاد أناتول أن يقع في الفخ، ولكنها كفت عن

المزاح عندما رأت في عيني بطرس نذير الشر، الذي رأته فيهما عقب مباروته مع دولوخاو، وقال لها بصوت منخفض:

- إن الرذيلة توجد حينما توجدين! تعال معي يا أناتول.

ولما أغلق على الرجلين مكتب بطرس، قال لشقيق زوجته ببروده الذي يتم عن بركان:

- هل قررت اختطاف الكونتس ناتاشا رستاو؟

- يا عزيزي، إنك تخاطبني بلهجة...

فاصفر وجه بطرس غضباً، وأمسك بتلابيب كسوته العسكرية وصاح:

- لست أدري ما الذي يمنعني من تحطيم وجهك، ولكن لا تخف فلن أدنس يدي، غداً ستغادر موسكو أيها الصهر العزيز، وإياك أن تبوح لإنسان بكلمة في هذا الصدد، فهناك شيء في الدنيا غير ملذاتك الوضيعة، هناك سعادة الآخرين وطمأنينتهم، إنك أوشكت أن تحطم حياة فتاة وعدتها أن تتزوجها وأنت متزوج، أتدري أن هذا يعتبر خسة وسفالة؟

- أدري فقط إنك وجهت لي عبارات لا يمكن أن أتحملها من أي شخص ولو في خلوة.

- لعلك تريد أن تبارز؟ لا مانع!

- يكفي أن تسحب كلماتك الجارحة، وسأنفذ رغبتك.

- سأفعل خيراً من هذا، سأعطيك مالاً لتسافر على نفقتي.

فومضت على شفتي أناتول ابتسامة الجشع التي طالما لمحها بطرس على وجه زوجته، فمحي غضبه وقال بازدراء:

- سلالة وضيعة لا ضمير ولا أخلاق!

***

وفي اليوم التالي توجه لزيارة ماري ديمتريفنا ليخبرها برحيل أناتول، فقيل له أن ناتاشا تحالف عليها الخزي واليأس فشربت السم وأمكن إسعافها في الوقت المناسب ونجت من الخطر ولكنها لم تزل في غاية الضعف.

وتوجه بطرس محزوناً إلى النادي فوجد أنه لا حديث للناس إلا محاولة اختطاف كونتس رستاو الشابة فأسرع يكذب الإشاعة، ويؤكد أن الصحيح في الموضوع هو تقدم شقيق زوجته بطلب يدها، ولكنه رفض على الفور.

وذهب بعد ذلك لزيارة آل بولكونسكي لأنه سمع أن أندريه عاد من الخارج، فاستقبلته الأميرة ماري، ووجدها مسرورة لما حدث، مع أنها

تنهدت وهي تشير بعينيها إلى الباب الذي كان ينفذ من ورائه صوت أخيها، وقالت:

- قال أنه كان يتوقع ما حدث وتحمل الصدمة خيراً مما كنا نطمع.

وبعد التحيات المعتادة أخذ أندريه بطرس من ذراعه إلى حجرته، وهناك تقلصت ملامح وجهه وهو يخرج من حقيبته مجموعة من الخطابات ويقول بصوت جاف:

- إن الكونتس رستاو فسخت خطبتنا وهذه خطاباتها وصورتها، فأرجو أن تقوم بردها إليها.

- إنها مريضة جداً وكادت تموت.

فضحك أندريه ضحكة فاترة وقال:

- يؤسفني هذا جداً، وهل لم يتنازل صهرك بطلب يد الكونتس رستاو؟

- إنه متزوج يا أندريه ... متزوج سراً ...

فضحك أندريه مرة أخرى وقال:

- قل للكونتس إنها كانت حرة على الدوام، وإني أتمنى لها الهناء.

فنظر بطرس إلى صديقه ملياً وقال:

- أليس لديك شيء آخر تقوله لي عنها؟

- اعلم يا بطرس ما تريدني أن أقول، أن أنسى ما فات واطلب يدها مرة أخرى.

- إن هذا لن يكون عملاً نبيلاً.

- يكون عملاً نبيلاً حقاً، ولكن لا أستطيع أن أمشي على آثار ذلك السيد صهرك، لن أكون خلفاً له فيما أفلت من براثنه، أعد إليها الخطابات، ولتقفل هذا الموضوع.

وعندما أستأذن بطرس من الأمير العجوز وابنته كان سرورهما واضحاً، فأدرك مدى الاحتقار الذي يشعران له نحو آل رستاو.

***

وفي السهرة توجه إلى ماري ديمتريفنا ليرد الخطابات التي في عهدته وتحدث إلى ماري ملياً، وإذا سونيا تأتي وتخبره أن ناتاشا نزلت إلى الصالون وترغب في رؤيته، فقالت له ماري:

- ترفق بها، فإنها أصبحت تستدر الرثاء حتى لم أجد الشجاعة على تأنيبها.

وتقدمت ناتاشا في شحوب شديد نحو بطرس، وقالت له:

- يا بطرس، إن أندريه صديقك، فقل له أنه آسفة على الأذى الذي سببته له، وإني التمس منه الصفح.

وكانت ترتعد من فرعها إلى فدمها وتلهث من الضعف والانفعال، فرق لها قلب بطرس رقة شديدة، وقال لها بصوت حنون أذهلها:

- سأقول له كل شيء يا صديقتي، وإن كنت بحاجة إلى سمحة أو رأى معين، فتذكريني، وسأكون دائماً سعيداً جداً...

- لا تكلمني بهذه اللهجة، فلست جديرة برعايتك.

فاختطف بطرس يدها وقبلها، وأبقاها بين يديه وقال لها:

- صه أيتها العزيزة الصغيرة! إن الحياة كلها لم تزل مفتوحة أمامك.

فقالت في خزي وتلعثم.

- بل فقدت كل شيء، أضعت نفسي ...

- فقدت كل شيء؟ آه لو كنت رجلاً آخر رشيقاً جميلاً ذكيا ... ولم أكن متزوجاً، إذن لركعت على ركبتي وطلبت منك بكل خشوع وإخلاص يدك وقلبك!

فتأثرت ناتاشا تأثراً يكل عن وصفه اللسان، ورمته بنظرة امتنان. وغادرت الصالون.

وغادر بطرس البيت وقد اكفهر وجهه من الانفعال العنيف، وعاد على بيته وقد حلق به قلبه إلى أفق لم يعهده في حياته، أحس كأن نفسه تطهرت وتجددت بالعبارات التي قالها لناتاشا، بل خيل إليه أن حياة جديدة بدأت تتفتح أمامه وتدب في أوصاله...

الفصل الرابع عشر

الحملة الكبرى

في ربيع سنة ١٨١٢ نشبت الحرب من جديد بين نابليون والقيصر إسكندر، وقبل أن ينضم أندريه إلى أركان الحرب، زار والده في لسيجوري، وكانت الأميرة ماري على عادتها معتكفة تعيش حياة خالية من السرور ومن المتعة. والآنسة بورين أصبحت أكثر ميلاً للتبرج من ذي قبل والأمل في المستقبل يملؤها. أما الأمير الشيخ فأصبح أشد خشونة وأسرع غضباً.

وكان "نيقولا الصغير" وحده هو الذي يشيع شيئاً من الحياة في ذلك القصر الكئيب، بابتسامته وشعره المجعد، وشفته السفلى التي تشبه شفة والدته الراحلة.

وحاول أندريه أن يدخل السرور على أبيه برواية النوادر اللطيفة، بيد أن الأمير العجوز كان يقاطعه ليشكو من عداوة بنته نحو الآنسة بورين التي يستريح إليها الشيخ.

فقال له أندريه:

- إني متأكد أن ماري تحبك وتحترمك، ومقتنع أيضاً أن الآنسة بورين هي المسئولة عن جميع الخلافات.

- إذن أنت تدمغني بالظلم والتحيز!

ثم قفز من مكانه فجأة وصاح:

- اخرج من هنا! لا أريد أن أرى وجهك!

وخرج أندريه فذهب ليرى ابنه نيقولا وأجلسه على حجره وقص عليه حكاية لم يتمها لأنه كان يفكر مهموماً في رحيله من غير أن يصالح أباه.

وسألته ماري:

- هل عزمت على السفر؟

- نعم. ومما يؤسف له أنك لا تستطيعين أن تصنعي مصل صنيعي.

- لماذا تقول ذلك؟ إن هذه الحرب يتكون فظيعة، ووالدنا تقدم في السن، والآنسة بورين سألتني عن أخبارك.

- إن التافهين من أمثالها هم الذين يسببون نوائب الرجال!

فأدركت ماري أنه لا يقصد الآنسة بورين فقط بل يقصد الأمير أناتول أيضاً.

- كلا يا أخي، إن الرجال ليسوا هم المسئولين، فما هم إلا أدوات الله ليسبب لنا الآلام لحكمة يعلمها إذا صفح.

- إن الصفح فضيلة نسوية، أما الرجل فلا ينبغي أن ينسى!

وبعد رحيل أندريه قال الأمير لابنته:

- لقد أفلحت في تكدير ما بيني وبين ابني، وأنا الآن أتعذب، فافرحي!

ولزم حجرته أكثر من ثمانية أيام ولم يستقبل أحداً حتى ولا الآنسة بورين، ثم عاد إلى نمط حياته العادي، فاهتم ببساتينه وابنتيه.

وكانت ماري تقضي جزءاً كبيراً من وقتها مع الصغير نيقولا، وتلقته دروساً في اللغة الروسية والموسيقى، وتفكر في أخيها، وترتعد خوفاً عليه، ولا تفهم سبب نشوب تلك الحرب التي يؤكد لها الأمير العجوز عدم نشوبها أصلاً!

***

وكتب أندريه في بداية شهر أغسطس خطاباً يطلب فيه الصفح من أبيه، فرد عليه أبوه رداً طيباً كريماً، ثم غير سلوكه من الآنسة بورين ...

وفي خطاب آخر ذكر أندريه أن العدو احتل فيتبسك، ونصح أباه بالرحيل إلى موسكو، لأن مسرح الحرب أخذ يقترب من لسيجوري، فلما قرأ الأمير الخطاب هز رأسه عجباً ومد به يده إلى ابنته قائلاً:

– اقرئي! إنه يتحدث عن حرب، ويقول إن مسرحها يقترب من هنا... يا للحمقى! أنا أؤكد لك أن الحرب تدور في بولندا، وأن العدو لن يحتله من اليمن.

سمعت ماري في شيء من التردد:

– إن أندريه يتحدث في خطابه يا أبي عن احتلال فيتبسك.

فرمقها الأمير بنظرة نارية، ثم ابتسم هازئاً وقال:

– أتظنين أبناء هذا الجيل يعرفون شيئاً!

بيد أنه عندما قرأ الخطاب مرة أخرى في المساء، فهم المقصود فجأة، فوثب من مكانه كمن يوشك أن يتخذ قراراً خطيراً، ثم غلبه التعب، فأغمض عينيه ونام.

وقلقت ماري مما جاء في خطاب أندريه، فأرسلت وكيل دائرة الأمير إلى حاكم سمولنسك ليسأله عما يجب عمله على ضوء الموقف. وفي الطريق سمع وكيل الدائرة صوت رصاص ينهمر، ورأى جمهوراً من الناس يهربون نحو المدينة.

وقابل وكيل الدائرة الحاكم الذي قال له:

- إني أنصح للأمير أن يرحل إلى موسكو حيث سأرحل أنا أيضاً.

ولم يكد الرسول يخرج من عند الحاكم ويمضي في طريقه إلى لسيمجوري، حتى ملأ الجو قصف المدافع، لأن الفرنسيين بدأوا في إطلاقها على المدينة.

وامتلأت الشوارع بالجنود، وشق وكيل الدائرة طريقه بين صفوفهم بصعوبة، وبعد قليل وجد نفسه فجأة وجها لوجه أمام فارس عرف فيه الأمير أندريه، فقال له الوكيل باكياً:

- هل هلكنا يا صاحب السعادة؟

- إن سمولنسك تستسلم، وسيكون العدو بعد ثمانية أيام في لسيجوري. اذهبوا إلى موسكو.

وقاطعه ضابط من هيئة القيادة قال له بخشونة:

- يا كولونيل، إنهم يحرقون البيوت أمام عينيك وأنت لا تحرك ساكناً، ستكون مسئولاً عن ذلك.

وعرف أندريه في المتكلم الضابط برج زوج فيرا، فلم يرد عليه واستأنف كلامه مع الوكيل قائلاً:

- إن لم أتلق خبر رحيله قبل اليوم العاشر من هذا الشهر، فسأترك كل شيء كي أذهب إلى لسيجوري.

وجعل يوصيه بجميع أنواع الاحتياطات لسفر أبيه وماري ونيقولا الصغير، ثم همز جواده واختفى به من غير أن يلتفت إلى برج الذي ظل واقفاً إلى جواره.

***

وكان حريق سمولنسك والتخلي عنها سببا في إثارة السخط والغضب في قلب أندريه، حتى نسى أحزانه الخاصة، وركز اهتمامه كله ونشاطه في راحة رجاله المساكين الذين أنهكهم، كما أنهك سائر الجيش، ذلك الانسحاب الذي تم في حرارة خانقة وعلى طرق مغطاة بالتراب الناعم السميك. ولم يكن يرطب الهواء الساخن أي نسمة، فجعل الجنود يتقاتلون أمام آبار القرى ليحصلوا على الماء.

وفي اليوم العاشر من أغسطس وصلت فرقة أندريه إلى ضواحي لسيجوري، فتوجه الأمير إلى بيته، مع أنه كان قد علم برحيل الأسرة إلى موسكو، فوجد الضيعة مهجورة وقد نهب كل شيء فيها، والبوابة الحديدية مفتوحة، والبهائم ترعى في البستان طلقة من غير رقيب، وقد يبست النباتات وانتزعت الأزهار من أحواضها، وجردت الأشجار من ثمارها أو اجتثت من جذورها.

وأسرع الوكيل الذي بقى في الضيعة يقول لأندريه:

- لم أستطع أن أمنعهم، كانوا ثلاث فرق، فأخذوا كل شيء، أخذوا التبن مع القمح، وهجر كثيرون من الفلاحين الأرض.

- لا بأس! لا تمكث هنا حين يحضر الفرنسيون بل احمل كل ما تقدر عليه، واستحث من بقي هنا على التعجيل بالرحيل.

ودار أندريه على عقبيه تحت الشمس الوهاجة عائداً من حيث أتى، فشاهد في المستنقع عدداً من الجنود يستحمون بين الصياح والضحك. وكان لون الصدور الأبيض مبايناً أشد المباينة للون الوجوه النحاسي القاتم، فقال أندريه محزوناً.

- أجسام! لحم لوقود المدافع!

واستأنفت القوات الروسية انسحابها، والجيش الفرنسي يلاحقها عن كثب، وفي موسكو بدأ القلق يعرف طريقه إلى قلب الكونت رستاو بسبب موضوع نيقولا الذي انقطعت أخباره...

وشفيت ناتاشا، واستردت شيئاً من بهجتها السابقة، ولكن هذه البهجة أصبح يخالطها الآن شيء من الشرود. وذات يوم وجدها بطرس تغني. فسألته:

- أتظن إنني أحسن الغناء؟

- طبعاً، ولكن لماذا السؤال؟

- لا أدري. لا أريد أن أصنع شيئاً يضايقك، لأنك أحسنت إلي كثيراً! أتعتقد أنه سيصفح عني وينسى كل شيء؟

- ليس لديه ما يصفح من أجله عنك. ليتني كنت في مكانه!

فقالت بحماسة واندفاع:

- أنت نبيل جداً وطيب جداً! ماذا كنت أصبح من غيرك؟

وفي هذه اللحظة دخل شقيقها الصغير بطرس الذي أصبح في العام السادس عشر من عمره وأسرع إلى بطرس بزوخاو قائلاً:

- عسى أن تكون قد تذكرتني يا بطرس!

- ألم تزل راغباً في الانضمام إلى الجيش؟ سأهتم بالموضوع منذ اليوم ..

***

واجتمعت الأسرة كلها على العشاء، وفي ختامه قرأ بطرس بيان القيصر إلى شعبه فأحدثت هذه القراءة انفعالاً عاماً، وصاح الكونت:

- بكلمة واحدة من القيصر نضحي بكل شيء كي نطرد العدو!

فقال بطرس الصغير:

- اسمح لي يا أبي، وأنت يا أمي. اسمحا لي أن أنضم إلى الجيش، فلم يعد في وسعي أن انتظر أكثر من ذلك.

فصاحت الكونتس مروعة:

- هذه هي ثمرة كلماتك الملتهبة!

وقال الكونت مخاطباً ابنه الصغير:

- يجب يا ابني أن نهتم بتعليمك أولاً.

- لا أستطيع أن أمضي في الدرس والوطن في خطر، أو لست أنت القائل الآن إننا يجب أن نضحي بكل شيء في سبيل الوطن؟

فقام الكونت وقال وهو يتأبط ذراع بطرس بزوخاو إلى حجرة التدخين ويقول:

- يا لك من جندي لا يزيد طوله عن ارتفاع حذائي!

أما بطرس بزوخاو فكان يفكر في ناتاشا التي استقرت عيناها عليه أكثر من مرة خلال العشاء في وداعة ورقة، فلما استأذن في الانصراف، قالت له:

- أتنصرف الآن؟ ولماذا يبدو عليك القلق؟

وأوشك أن يقول لها "لأني أحبك". بيد أنه غض من بصره ولزم الصمت، فقالت له ناتاشا في قوة:

- قل الحقيقة!

وتلاقت نظراتهما المضطربة فقبل بطرس يدها، وقطع عهداً على نفسه ألا يعود إلى زيارة آل رستاو.

***

ولما عاد وكيل الأمير العجوز من سمولنسك، وجد مولاه قد نشط فجأة وأصدر الأوامر بتسليح جميع الفلاحين في قراه وأملاكه، وفي اليوم التالي ارتدى بدلته العسكرية وتحلى بجميع نياشينه، واستعرض الفلاحين وخطب فيهم، ثم تهيأ للتوجه إلى القائد العام، وإذا بابنته تراه يعود فجأة بخطوات بطيئة، يسنده اثنان من الفلاحين ويتبعه جمع كبير.

وأسرعت ماري إلى والدها الشيخ فوجدته يحرك شفتيه من غير أن يقول شيئاً، وأرقدوا الأمير على الأريكة، ودعي الطبيب على عجل، فقصد شيئاً من دمه ثم قرر أن الشيخ أصيب بشلل في نصفه الأيمن.

وأدركت الأميرة ماري أن الإقامة في لسيجوري أصبحت خطرة، فأخذت أباها إلى بوجو تشاروثو، في حين رحل نيقولا الصغير ومعلمه الخاص ومربيته إلى موسكو.

وذات مساء حضر الطبيب وقال للأميرة ماري أن أباها تحسنت حالته ويطلب مقابلتها. وانحنت فوق الشيخ لتقبل يده اليسرى التي ظلت سليمة، بيد أنه جذب يده بشدة أذهلتها، وقال بعناء وهو يداعب شعرها:

- إني أفكر ... دائماً ... فيك يا صغيرتي العزيزة.

وبرقة لم تعهدها أبداً فيه استطرد:

- اغفر لي يا صديقتي العزيزة كل ما سببته لك من آلام.

وشرع بعد ذلك يبكي وطلب أن يرى ولده، فقالت له:

- إنه في الجيش يا أبي في سمولنسك.

- نعم. لقد ضاعت الروسيا ...

وضغط من جديد على يد ماري وقال:

- البسي ثوبك الأبيض الذي أحبه كثيراً.

ثم غاب الشيخ عن رشده، وقد أنهكه المجهود الذي بذله في الكلام، فأجهشت ماري بالبكاء وأخذها الطبيب من يدها إلى خارج الحجرة.

وبعد ما لا يزيد عن نصف ساعة سمعت ماري الوصيفة تناديها، فأسرعت ورأت الطبيب يخرج من غرفة المريض ليقول لها في وجوم:

– تمت إرادة الله ...

ففزعت ولم تصدق، ودخلت على أبيها فوجدته شاحباً شحوباً فظيعاً، فقبلت خده ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعي الطبيب.

***

وبعد تشييع الجنازة، لم تستقبل الأميرة ماري أحداً، ولما أرسل الوكيل يسألها عن تعليماتها بصدد الرحيل، أرسلت إليه تقول أنها غير راغبة في الرحيل.

وكانت جالسة بجوار النافذة المفتوحة في ليلة صافية من ليالي الصيف حين سمعت بالقرب منها صوت الآنسة بورين الرقيق العذب تستأذنها أن تشاركها حزنها. فأخذت ماري الشفقة بهذه المسكينة التي أصبح مصيرها في يدها، فنسيت أحقادها ومدت إليها يدها.

وبعد قليل قالت الآنسة بورين:

– أتعلمين يا أميرتي العزيزة إنك في خطر، فالفرنسيون يقتربون، وإذا لم نرحل الآن ربما امتنع علينا الرحيل بعد قليل.

– لماذا؟

– إن الشائع على الألسنة منذ أمس أن يوجو تشاروثو أصبحت واقعة بين مؤخرة الجيش الروسي وطلائع الجيش الفرنسي، وقد أصدر القائد الفرنسي نداء يدعو فيه جميع السكان إلى عدم مغادرة

الإقليم، وأنهم سيكونون تحت حماية الجيش الفرنسي، والفلاحون في حالة لا تدعو للطمأنينة، فقد تألفت منهم عصابات للسلب والنهب، وأقدم معظمهم على السكر والإجرام، فإن تأخرت أكثر من ذلك فسوف لا تجدين من يوصلك إلى موسكو بأمان.

وكانت الآنسة بورين صادقة فيما قالت، فمؤخرة الجيش الروسي كانت قريبة من ذلك الموقع فعلاً، ولكن قبل التخلي عن المنطقة للعدو قرر قائد الفرقة الكونت نيقولا رستاو أن يستولى على جميع المؤن الموجودة فيها فراح يجوب الضياع والقرى على رأس رجاله لذلك الغرض، وهو لا يدري أن الأملاك التي يمر فيها مملوكة للأمير أندريه بولكونسكي، خطيب شقيقته السابق.

ولمح الوكيل الفرسان عن بعد، فأخبر الأميرة، فكلفته ماري أن يسأل عن اسم الضابط الذي يقودهم، فلما عرفت أنه الكونت رستاو أمرت بإدخاله إلى الصالون ثم رفعت إليه نظرها النفاذ المشرق وقالت له أنها راغبة في الرحيل، ولكن الفلاحين يمنعونها من السفر زاعمين أن القيصر أصدر مرسوماً يلزم كل شخص بالبقاء حيث هو.

- ما أسعدني يا أميرتي أن أضع نفسي تحت تصرفك، سترحلين منذ الغد، أعدك بذلك وعد الشرف، ولن يجسر أحد على اعتراضك.

وانحنى أمامها كما ينحني أمام ملكة وأستأذن في الانصراف، لأنه لم يشأ أن يستغل تلك الظروف في فرض نفسه على الأميرة، ثم توجه إلى الوكيل وصرخ فيه:

- أيها الكلب العجوز! ماذا تصنع حتى تترك الفلاحين يثورون؟ سألقنكم كلكم درساً وأحرقكم أحياء.

فقال له الوكيل:

- لا أنصحك يا سيدي بمصادمة الفلاحين قبل أن تحصل على مدد.

- مدد؟ سترى ..

ثم اتجه بوجه محتقن وخطوات متزنة نحو جماعة الفلاحين وصرخ فيهم:

- اخلعوا قلانسكم أيها اللصوص! أتتجاسرون على التمرد؟

ثم أمسك بتلابيب أقربهم إليه لأنه كان فيما يبدو زعيم العصبة وهزه هزاً عنيفاً ثم أمر بصوت رهيب:

- عودوا جميعاً إلى بيوتكم، وبعد ساعة واحدة يجب أن تكون العربات والرجال أمام الشرفة كي ترحل الأميرة.

وبعد ساعة كان الفلاحون يضعون الحقائب في العربات، ومعظمها كتب أندريه الضخمة. وكان الفلاحون يتندرون من ثقلها قائلين:

- يا لها من كتب ضخمة! إن هؤلاء الأشراف يشربون الحبر أكثر من الفودكا!

وصحب نيقولا الأميرة ماري إلى أقرب بلدة تابعة للروس، ولما شكته الأميرة أحمر وجهه وقال لها:

- إني لسعيد جداً بمعرفتك، وبأداء خدمة صغيرة لك، وأتمنى يا أميرتي أن أراك يوماً في ظروف أقل شقاء من هذه.

ثم سمح لنفسه أن يقبل يدها فرمقته بنظرة طويلة.

وظلت تفكر طول النهار في تلك المغامرة، والابتسامة المشرقة تضيء وجهها طول الرحلة، وكذلك نيقولا رستاو تركت فيه هذه المقابلة أثراً عميقاً، وأعتقد أن والدته سيسعدها كثيراً أن يتزوج الأميرة ماري، فهي عريقة النسب واسعة الثراء، وسوف يخرج هذا الزواج أباه من ضائقته المالية وعساه أيضاً أن يتمخض عن سعادة المخلوقة الرقيقة التي أنقذها.

بيد أن طيف سونيا تمثل له فجأة وتذكر وعده لها، فأصبح حائر القلب والعقل بين هواه القديم وهواه الجديد.

الفصل الخامس عشر

وحشية الفرنسيين

ومن أعاجيب تلك الحرب أنه كلما ازداد الفرنسيون قرباً من موسكو، ازداد سكان المدينة في عبثهم وفي عدم مبالاتهم، وكان حاكمها يلصق على الجدران إعلانات هزلية ومنشورات تسخر من العدو، وكان الجمهور يقرؤها مسروراً.

وفي صالون الأميرة جوليا تروبتسكايا اجتمع عدد من الوجهاء لتوديع الراحلين إلى الميدان في "نيني"، وكان الجميع يمازحون بطرس بزوخاو ويسخرون منه بسبب الفرقة التي جهزها بكامل المعدات على نفقته الخاصة، ويبادلهم هو المزاح.

- إنك يا عزيزي بطرس ستقود الفرقة بنفسك! أليس كذلك؟

- مستحيل! إني بدين جداً، فأكون هدفاً سهلاً لرصاص الأعداء.

***

وفي اليوم التالي تأهب بطرس للذهاب إلى مركز القيادة العامة في الميدان، وفي الطريق التقى بقافلة من الجرحى في حالة يرثى لها، وعرف

بطرس بزوخاو في تلك القافلة صديقاً له هو كبير الأطباء الذي سأله عن سبب قدومه، فقال:

- جئت لأرى كيف تسير الأمور.

- سترى الكثير إذن، غداً ستنشب موقعة، وسيكون فيها على الأقل عشرون ألف جريح، وليست لدينا أسرة كافية ولا أطباء ولا ممرضون إلا لعشرة آلاف فقط!

فأردك بطرس خطورة الساعة التي يجتازها وطنه، بينما الناس في موسكو سادرون في لهوهم.

ووصلت العربة إلى ربوة تشرف على الحقول والمراعي والغابات والجداول والقرى التي تتميز الواحدة فيها عن الأخرى بكنيستها البيضاء الناصعة. وكانت هذه هي "بورودينو"، مركز العمليات والمواقع الروسية.

ووقف بطرس يحاول أن يفهم توزيع الجيش في تلك الساحة الكبرى، عندما رأى موكباً يحيط به ويتبعه جمهور كثيف من الضباط والجنود خارجاً من بورودينو متجهاً إلى الربوة التي يقف فوقها، وكان في المقدمة رجلاً يحمل أيقونة كبيرة سوداء أحضروها من سمولنسك واعتبرت تعويذة الجيش.

ووقف الموكب في الموضع الذي به بطرس، وأخذ القساوسة يتلون الصلوات والأدعية، ثم ركع القائد العام كوتوزاو قبل الأيقونة، وحذا

الجنرالات والضباط والجنود حذوه، فتأثر بطرس بهذا المنظر. ولمح وهو يلتفت برأسه بوريس يقف باسما في حلة أنيقة للميدان، وقد طوح على كتفه سوطاً من سياط القوازق، فقال له بطرس:

- أريد أن أشهد المعركة، فهل لك أن تريني مواقع الروس.

- إنها من هيئة أركان حرب بنيكسن، ومن هذا الموضع تستطيع أن ترى الميدان على أحسن وجه.

وشاهد بطرس في هذه اللحظة دولوخاو يقترب من القائد العام كوتوزاو ويعرض عليه خطة لإنقاذ الوطن، وكان كوتوزاو يصغى له ويبتسم لبطرس، ثم قال:

- أراك حضرت يا كونت بزوخاو لتستنشق رائحة البارود الزكية! كيف حال الأميرة؟ إن معسكري تحت تصرفك.

ولم يعلق على خطة دولوخاو بشيء، ثم لم يلبث كوتوزاو أن ابتعد، فاقترب دولوخاو من بطرس وتناول يده قائلاً:

- في عشية يوم قد يكون الأخير في حياة الكثير منا، أجدني حريصاً على التعبير لك عن مبلغ أسفي لما كان بيننا من سوء تفاهم، وأرجوك أن تصفح عني.

فابتسم بطرس وترك دولوخاو بقبلة.

وخصص بطرس ذلك اليوم لزيارة مواقع القوات المختلفة، وأخذ الليل يزحف فعلاً ويخيم عندما اتجه بطرس إلى الموضع الذي سيقضي فيه الليل، وفي الطريق اصطدم بطرس بوتد خيمة، فصاح ساخطاً:

- فليخطفك الشيطان.

فعرفه صوت الضابط الراقد في الخيمة على حدود فرقته وهتف به:

- أهذا أنت يا بطرس؟ أي مصادفة سعيدة!

وكان هذا الضابط هو أندريه، فقال له بطرس في شيء من الحرج وقد أدرك أن أندريه ليس مسروراً جداً من اللقاء به:

- جئت لأشاهد الموقعة.

فقاده أندريه إلى الضباط الآخرين وجلسوا يتحدثون عن استعدادات الموقعة، وعن مزايا الجنرالات وعيونهم، وقال القومندان بتموفين:

- عندما وقع اختيار القيصر على كوتوزاو قائداً عاماً في هذه المعركة، شعرنا كأن ضياء ثاقباً أشرق علينا.

فأجاب أندريه قائلاً:

- أجل، لقد أدرك القيصر أن كوتوزاو أصلح لهذه المهمة من بنيكسن وباركل والجنرالات الآخرين الألمان، لأننا اليوم لا نقاتل في أرض أجنبية، بل نقاتل عن أرضننا الروسية، فكوتوزاو الروسي هو الذي يستطيع وحده أن يفهم روح الجيش الروسي، تلك الروح التي تعتقد في تيموخيدر وبيننا جميعاً.

- أتعتقد أننا سنحرز النصر؟

فأجابه أندريه بكل قوة:

- أجل، لأن النصر يكون دائماً من نصيب الراغب فيه الواثق منه المصر عليه، فلئن كنا قد منينا بالهزيمة في أوسترلمتز، فلأننا لم نكن نفكر إلا في الفرار والنجاة، وكنا في أرض غريبة، أما غدا فلن يكون هذا شأننا، وسيلتقى مائة ألف روسي لقاء الأكفاء مع مائة ألف فرنسي فوق أرض روسية، والفريق الذي سيبذل في المعركة من نفسه وإيمانه وصلابته سيكون هو الفائز.

فقال تيموخين:

- أصبت يا صاحب السعادة، وكتيبتي كلها ترى مثل رأيك. وتقدر خطوة الساعة، ويكفي دليلاً أن الجنود كفواً من تلقاء أنفسهم عن تجرع الفودكا.

ونهض بطرس قائلاً:

– لقد تأخر الوقت ويجب أن تستريح قبل الموقعة، وربما لا نتقابل بعدها، فليكن هذا بمثابة وداع.

ولم يستطع بطرس أن يرى في الظلام وجه أندريه فزفز زفرة عميقة واتجه نحو القرية التي سيمضي سواد ليلته فيها.

***

ونام بطرس في حجرة صغيرة هيأها له بوريس، ثم روع من نومه على ضجة قاصفة فارتدى ثيابه على عجل وخرج. وصاح أحد الياوران وهو يعبر به مسرعاً:

– حان الوقت أيها الأمير. وقد ركب جميع الجنرالات والقائد العام.

وتوجه بطرس إلى الربوة التي أشرف منها بالأمس على السهل المترامي. فوجد المعركة وقد اشتمل أوارها. وبضع مئات من المدافع تتقاذف نيرانها.

وأصدر كوتوزاو أمره إلى أحد الجنرالات. فركب بطرس جواده وأسرع في أعقاب ضابط يعرفه ليسأله عن الموقف. فقال له:

– إن القتال حامي الوطيس من جهة جيش باجراتيون، فتعال معي إلى بطاريتنا.

وكانت تلك البطارية مقامة فوق مرتفع صغير من الأرض. وجمع هناك عدد من المدافع تحميها الخنادق. ووقف المشاة وراءها على استعداد للتدخل إذا هوجم موقع المدفعية. ولم يخطر ببال بطرس أنه موجود في تلك اللحظة في وسط المعمعة. وفي تلك البطارية بالذات التي لقبها الفرنسيون بالبلية العظمى. فقد كانت سبباً في هلاك آلاف من جنودهم.

وكان بطرس يروح ويجيء بين المحاربين. وهو مذهول من ثباتهم على الرغم من القنابل ووابل الرصاص الذي كان يحصد الرجال حصداً وينسف المدافع. وشعر أن اللهيب الداخلي الذي يثير تلك المخلوقات، كان يتقد في نفسه أيضاً، ووجد أنه يبتسم من غير وعي في مواجهة الموت.

وفجأة وصلت القذائف المعادية إلى صناديق الذخيرة فانفجرت. وتوقفت البطارية عن إطلاق النار وهجم على موقعها طوفان من الجنود ذوي الثياب الزرقاء. جنود نابليون، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا بصفوف متراصة من الجنود الروس الذين استردوا البطارية وتعقبوا العدو.

وكانت كميات تفوق العدو من الموتى والجرحى تغطي وجه الأرض، فلم يستطع بطرس أن يحتمل ذلك المنظر الفظيع وقد تقدم النهار، فنظر في قلق نحو الربوة التي كان كوتوزاو واقفاً فوقها منذ الصباح الباكر كأنه تمثال لا تتحرك في وجهه عضلة، لا يصدر من الأوامر إلا القليل، ولكنه

يصغي جيداً لتقارير الضباط. ويهتم بتعبيرات وجوههم ولهجتهم أكثر من اهتمامه بألفاظ التقرير.

وسمعه بطرس يقول لأحد الياوران بعد تقرير طويل:

– نعم أفعل هذا... نعم يا صديقي اذهب وانظر ... كلا بل يجب أن ننتظر... فلنصبر فترة أخرى.

والحقيقة أنه على الرغم من الهجوم بكتل متراصة من ماريشالات نابليون. أيدي الجيش الروسي ما لم يبده في جميع المواقع السابقة فلم يقتصر على الابتعاد عن كل تفكير في القرار، بل ثبت في مكانه، بالرغم من خسائره الفادحة.

ونظر الإمبراطور نابليون فيما حوله فلم ير على وجوه الماريشالات إلا انعكاساً لما يساوره من قلق لظاهرة لم يسبق لها نظير، وأخرجه ياوره من أفكاره القاتمة بأن اقترح عليه التفتيش على الفرق والتجول بين الصفوف، فنهض نابليون عن الوسادة التي كان جالساً فوقها، وركب جواده الأبيض، واتجه ومن ورائه ماريشالاته ليفتش الميدان ويتبين– ويا لهول ما تبين– أنه لم يشهد في حياته أبداً مذبحة كهذه المذبحة.

وشارفت المعركة على نهايتها، ولكن الفرق الروسية المتراصة في ذلك السهل استمرت في إطلاق النار، ولم يظهر عليها أي استعداد للتراجع، وهمس أحد الجنرالات من خلف نابليون بصوت مسموع:

– إن نيرانا تحصدهم صفوفاً كاملة وبكل تركيز، ولكنهم لا يتحركون.

فقال نابليون بصوت حانق:

– أكثر من مائتي مدفع لا تكفي إذن للقضاء عليهم؟ أيطلبون المزيد؟ أحضروا إذن بطاريات أخرى!

وكانت فرقة الأمير أندريه بولكونسكي في الاحتياطي على بعد قليل من تلك الكتائب التي أثار بجلدها وثباتها تحت نيران المدفعية دهشة نابليون وغضبه، فلما تضاعف قصف المدافع، تلقى الأمير الأمر بمساندة القوات التي يركز عليها العدو هجومه.

وكان أندريه كسائر رجاله متجهماً، ويستنجد بكل روحه المعنوية ليقاوم فظاعة الموقف، فاجتهد ألا يفكر في شيء ومشى بخطوات واسعة وسط صغير القذائف وانفجاراتها وصرخات الجرحى.

وسقطت قنبلة على بعد خطوتين منه، فانبطح أحد الضباط وقد أصفر وجهه خوفاً من الأرض، ووقف أندريه يصرخ فيه:

– ألا تخجل أن ...

ولم يتمها الآن القنبلة انفجرت فألقت به بلا حراك، ووجهه إلى الأرض.

فصاح تيموخين وهو يقترب من النقالة التي وسدوا أندريه فوقها:

- قائدي وأميري! لهف نفسي عليك! ..

ففتح الأمير عينيه ببطء ورمق الضابط الباسل ثم أغمض جفنيه ونقلوه خلف النقالة فوق غابة صغيرة، ثم وسدوه فوق مائدة بجوار جرحى آخرين، فذكره هذا اللحم البشري الدامي بمنظر رجاله الذين كانوا يستحمون في المستنقع منذ بضعة أسابيع بالقرب من أملاكه، وكانت تلك الأجساد يومئذ تتضح حياة وعافية وسروراً بالحياة.

وعلى المائدة المجاورة، كان الطبيب يقطع ساق أحد الجرحى، فوجد المسكين فرصة كي يتأوه قائلاً:

- أرنيها!... أريد أن أراها.

فارتعدت فرائص أندريه لذلك الصوت، إذ عرف فيه "الأمير أناتول"، تعجب للمقادير كيف تجمعه تحت مبضع الجراح بالرجل الذي يرتبط في ذاكرته بأسوأ الخواطر وأفدح الآلام.

وفجأة تمثل له طيف ناتاشا الفاتن، على الصورة التي رآها بها في الحفلة الراقصة سنة ١٨١٠، واستيقظ حبه لها، وأخذ يبكي إشفاقاً على نفسه وعلى أمثاله جميعاً، على أخطائهم وأخطائه، ثم ترك نفسه لعناية الطبيب مستسلماً وهو مطمئن أن الألم الشديد سيفقده وعيه، فلا يحس بالمبضع.

ولما ثاب إلى رشده أدهشه غاية الدهشة إلا يسمع إلا صدى ضعيفاً لذوي المعركة، وكان الجيشان قد وصلا إلى غاية جهدهما، وليس في طاقة الروس ولا الفرنسيين أن ينزلوا الضربة الأخيرة لإحراز النصر الحاسم.

وعلى الرغم مما اقترحه الجنرالات، أعتقد كوتوزاو أنه ينتهج خطة الحذر والحيطة حين أمر في أول سبتمبر بتراجع جيشه، فتخلى بذلك للفرنسيين عن الطريق إلى موسكو ...

وفي اليوم التالي، في الساعة العاشرة صباحاً، كان نابليون واقفاً فوق تل عال، تحيط به كوكبة ماريشالاته، يتأمل منظر المدينة المقدسة الرائع، بحدائقها المترامية، وقصورها الباذخة، وكنائسها التي كانت قبابها المذهبة تتلألأ في نور الشمس بوميض يخطف الأبصار.

وصاح نابليون في نشوة الظفر:

– أخيراً يا موسكو! ها هي أخيراً تلك المدينة الآسيوية في قلب أوربا! موسكو المقدسة! إن العاصمة المتكبرة تحت رحمتي.

وأمر على الفور أن تزحف الطلائع التي ستسلمه المدينة. ودخل الجنرالات موسكو ليعودوا إليه بوفد أعضائها ومعهم مفاتيحها، فلم يجدوا في المدينة كلها ديارا ولا نافخ نار، اللهم إلا شراذم ن الفلاحين نهبوا أقبية الخمور وشربوا منها حتى صرعهم السكر.

وتضجر الإمبراطور الملول من طول انتظار طلائعه التي أرسلها تطلب التسليم، وبإشارة من يده دوي صوت مدفع، فهجمت جميع القوات الفرنسية المحيطة بموسكو ودخلت المدينة من جميع أبوابها في وقت واحد، وهي تطلق صيحات النصر والهتاف للإمبراطور.

أما الإمبراطور نفسه فدخل مشارف المدينة في عربة ووقف في أحد ضواحيها مبهوتاً، فقد كانت المدينة مقفرة.

ولم يسعه إلا أن يغمغم:

– يا للعجب! لا أكاد أصدق عيني!

الفصل السادس عشر

مقاصد الله

لم توافق الكونتس رستاو على مغادرة موسكو إلا بعد أن قابلت ابنها بطرس الصغير الذي ينادونه باسم "بتيا"، وكان قد انخرط في فرقة بطرس بزوخاو التي جهزها على نفقته وعسكرت بالقرب من المدينة.

والحقيقة أن الوقت قد حان لرحيل آل رستاو، لأن العدو بات على قيد النظر تقريباً من العاصمة القديمة، وكانت سونيا بتفكيرها العملي الثاقب قد عنيت بحزم الأثاث والسجاجيد وكل ثمين في القصر الكبير.

وأمضت سونيا طيلة نهارها مشغولة في ذلك العمل فنسيت في غمار الحزن العميق الذي سببته لها الكونتس حين أطلعتها على خطاب نيقولا رستاو الذي يروى فيه التقاءه بالأميرة ماري بولكونسكا ثم زادت الكونتس على ذلك بقولها لسونيا:

– قلبي يحدثني إن نيقولا سيوفقه الله من الزواج بالأميرة!

ومع ذلك لم يغب عن ذهن سونيا أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ ثروة آل رستاو، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تتألم ألماً فظيعاً. لتخليه عنها.

وكانت ناتاشا تجتهد أن تساعدها، ثم لم تلبث أن سئمت تلك الأعمال، ووقفت تنظر من الشرفة فرأت قافلة من الضباط الجرحى مارة أمامها، فقالت لقائد تلك القافلة:

– هلا سمحت للجرحى بالراحة عندنا والإقامة في بيتنا، أن المكان متسع ونحن سنغادره.

وابتسم القائد وفكر لحظة، ولما كان لا يدري في الحقيقة أين يذهب بجرحاه، لم يجد مانعاً من قبول الدعوة.

وأسرعت ناتاشا فأدخلت العدد الأكبر من هؤلاء الجرحى إلى الحجرات الخالية، وحذا الجيران حذوها فأدخلوا عندهم الجرحى الآخرين.

وتركت ناتاشا أمام الباب وصيفتها، بعد أن أوصتها باستقبال من يفد من الجرحى بعد ذلك، وجرت لتخبر والدها ووالدتها اللذين وافقاها باسمين.

***

وقرب المساء لمحت الوصيفة عربة تسير ببطء أمام الباب وقد جلس بجوار الحوذي خادم تدل كسوته على شرف مكانة سادته، فقالت الوصيفة:

- انزلوا عندنا، فالسادة راحلون.

فأجاب الخادم قائلاً:

- نحن أيضاً نسكن موسكو، ولكن بعيداً عن هنا، ولا أحد في البيت، ولست أدري هل سأصل إلى هناك وسيدي على قيد الحياة، سأسأل الطبيب.

ووافق الطبيب، فنقلوا الجريح إلى السلاملك حيث قضى ليلته، وفي صباح اليوم التالي تأهب الكونت رستاو لإعطاء الإشارة بالرحيل للثلاثين عربة التي تحمل أثاث قصره، وإذا بضابط جريح من الذين أقاموا تلك الليلة تحت سقفه يقول له متردداً:

- أرجو منك يا كونت ... أسمح أن أحتل مكاناً صغيراً في إحدى عرباتك.

ولم يتم جملته حتى اقترب ضباط آخرون وطلبوا المكرمة عينها، فأجاب الكونت:

- بكل سرور...

ثم التفت إلى وكيل دائرته وقال:

- انظر إن كان يمكن تخصيص عربة أو عربتين ...

فأضاءت وجوه الضباط، ونظروا جميعاً إلى الكونت متوسلين، فأصدر أمراً في الحال وعاد إلى القصر حيث نادته الكونتس وقالت له:

– ما هذا الذي أرى يا عزيزي؟ لماذا يفرغون العربات الآن؟

– هناك ضباط طلبوا مني بضع عربات للجرحى، فلم أستطع أن أرفض، وإلا فماذا يحدث لهم أن تركناهم، إن الأثاث والملابس يمكن تعويضها...

– أتريد إذن أن يتم خرابنا! أنت نفسك قد قدرت ما في العربات بمائة ألف روبل، ثم تتخلى عن كل شيء، إن الجيران أخذوا كل شيء يخصهم منهم، ومن الغفلة إلا نحذو حذوهم، فكر في أطفالنا.

وخرجت الكونتيس لكي تعارض في تفريغ العربات، ثم عادت لتجد ناتاشا تبكي:

– أنظري يا أماه إلى الحديقة لترى هؤلاء المساكين الذين نتخلى عنهم لنأخذ كل هذه الأشياء التافهة، هذا مستحيل يا أمي، لن تصنعي هذا!

فخفضت الكونتيس رأسها، وأخذها الكونت بين ذراعيه قائلاً:

– كبرت الكتاكيت وصارت تلقن الدروس للدجاجات الكبيرة.

- اصنع يا عزيزي ما يروق لك.

فقفزت ناتاشا مسرورة إلى الخارج لتأمر الخدم بتفريغ العربات، ونفذ الخدم الأمر وأحاط الجرحى مسرورين بالعربات، وناتاشا مبتهجة تصفق وتروح وتجيء بين الخدم أما سونيا فأخذت ترتب الأشياء التي ستترك وتعد بها قوائم، وتحرص على أخذ أكثر ما يمكن من الأشياء.

وفي بداية العصر، خرجت العربات المحملة بالجرحى من الحديقة، ولفت نظر سونيا عربة الضابط الذي كان راقداً في السلاملك لا يعي شيئاً، فقالت الوصيفة:

- لمن هذه العربة الغريبة عنا؟

- ألا تعلمين يا آنسة؟ إنها عربة الأمير أندريه بولكونسكي، خطيب بنت عمك القديم، وهو مجروح جرحاً خطيراً ويعتبرونه مقضياً عليه لا محالة.

فذهلت سونيا، وأسرعت على الفور إلى الكونتيس قائلة:

- إن الأمير أندريه هنا، جريحاً مشرفاً على الموت. فاكفهر وجه الكونتيس وقالت بعصبية:

- وناتاشا؟ أتعلم؟

– لا تعلم. ولكن الأمير سيسافر معنا في قافلة واحدة.

فقبلت الكونتيس سونيا وهي تبكي وقالت:

– حقاً يا ابنتي إن مقاصد الله لا يدركها البشر!

واجتمعت الأسرة كلها بعد بضع دقائق في الصالون حيث أدت صلاة قصيرة، ثم استقلوا العربات خلف قافلة الجرحى، وكانت ناتاشا تبدو مسرورة للغاية، تنظر إلى البيوت والجدران في المدينة التي هجرها الأهلون والجنود وتركوها لمصيرها التعس، ثم تلقى بين الحين نظرة على صف العربات الطويل، وفي كل مرة تتوقف نظرتها عفواً عند عربة الأمير أندريه، مع أنها تجهل وجوده فيها.

وفجأة صاحت في جذل:

– ماما! سونيا! انظرا هناك، هذا بطرس بزوخاو ولاشك.

ولما وصلت العربات إلى حيث وقف بطرس، رفع رأسه وابتسم فقالوا:

– أتنوي البقاء هنا في موسكو؟

فأشار برأسه إيجاباً، وترك العربة تمر ونظرات ناتاشا تخترقه، ثم استأنف تجواله في المدينة المقفرة.

لقد أحب ناتاشا ولم يجسر على التفكير فيها، يوم كان بغير اسم وبغير ثروة، فلما أصبح الأمير بزوخاو الواسع الثراء، ازداد حبه لناتاشا، ولكن بدا من المستحيل أن يحملها على حبه، فهي في نظره أسمى من سائر النساء.

وتذكر بطرس زواجه التعس من إيلين، وحب أندريه لناتاشا ثم خيانة الفتاة لأندريه، بحيث لم يعد يعرف كنه عواطفها.

***

وخيم الليل حينما توقفت القافلة على بعد عشرين فرسخاً من موسكو، في قرية صغيرة آوت بيوتها الحقيرة الأسرة والجرحى.

وفي تلك الليلة شوهدت ألسنة لهب هائلة في اتجاه المدينة المهجورة، فصاح خادم عجوز:

- يا أخوتي، هذه موسكو تحترق، أمنا كلنا ذات الأسوار البيضاء!

وانهمرت عيون الشيخ، وبكى معه جميع الموجودين وارتفعت إلى السماء زفراتهم وأدعيتهم المرتجفة.

وساء الكونتيس إن سونيا أخبرت بنت عمها أن الأمير أندريه بين الجرحى في القافلة، فاصفر وجه ناتاشا اصفراراً شديداً، ولم تفارق الكونتيس منذ تلك اللحظة، فقالت لها أمها:

- اذهبي يا عزيزتي ونامي فإنك مجهدة.

- حالاً يا أمي حالاً.

ولم تلبث الكونتيس وسونيا إن نامتا لشدة تعبهما، فنهضت ناتاشا عندئذ من مرقدها من غير ضجة واخترقت الحجرة، والدهليز، ودخلت حجرة كان فيها أحد الجرحى موسداً فوق فراش.

وفي ضوء شمعة مشتعلة في الركن، لمحت خادم الأمير الخاص والطبيب، وضابطاً لم يكن سوى الباسل الأمين القومندان توموخين، وقد ناموا على الأرض.

ومرت ناتاشا بجوار النائمين فوجدت نفسها أمام الأمير أندريه الذي فتح عينيه ونظر إليها بإعجاب، ثم جعل يغمض جفنيه ويتمتم:

- ما أشد قسوة هذا الهذيان!

وكان ظاهراً أنه يريد محو ذلك الخيال الذي ظنه وهما. ولكن وجه ناتاشا اقترب، وركعت الفتاة بقربه، فأدرك أندريه أنها هي حقاً.

- أهو أنت؟! ما أسعدني!

وابتسم ومد إليها يده فجعلت تمسحها بشفتيها الجافتين مسحاً رقيقاً وتقول:

- اصفح عني.

- أحبك.

- اغفر لي ما سببته لك من أذى.

- إني أحبك أكثر من ذي قبل.

ثم تناول أندريه رأسها بين كفيه ليرى عينيها وهما تفيضان حباً وحناناً...

واستيقظ تيموخين على همسها، والطبيب والخادم، فقال الطبيب لناتاشا:

- ليس مكانك هنا يا آنسة، أرجو منك أن تذهبي.

وخرجت ناتاشا فالتقت بالوصيفة التي أرسلتها الكونتيس تبحث عنها، وكما يستيقظ السائر في نومه مذعوراً عادت إلى حجرتها، وألقت بنفسها على سريرها! وانفجرت باكية.

ومنذ ذلك اليوم، وهي تنتهز الوقوف بكل مرحلة كي تتوجه إلى أندريه، وكم أثارت إعجاب الطبيب بما أظهرته من ذكاء وبراعة في العناية بالجرحى.

وأخذت أسرة رستاو تفكر في حالة شفاء الأمير أندريه أن المياه ستعود بينه وبين ناتاشا إلى مجاريها، ولكن لم يثر أحد الموضوع، لأن الخطر الذي كان يتهدد الأمير بل يتهدد الروسيا كلها، كان طاغياً على كل تدبير وتفكير.

الفصل السابع عشر

حريق موسكو

استيقظ بطرس متأخراً في اليوم الثالث من سبتمبر، وكان قد قام بملابسه كاملة، وشعر بعدم ارتياح، وكان الحريق الذي لم يهتم به حين غلبه النوم قد اتسعت رقعته الآن فشمل مدينة موسكو.

وخرج فوجد الشوارع مقفرة، تملؤها رائحة الدخان والرماد، وكلما تقدم في السير اشتدت كثافة الدخان، حتى أصبح الهواء غير صالح للتنفس، وفجأة سمع صرخة جعلته يجفل، فنظر تحت قدميه ليرى امرأة راكعة تتوسل إليه قائلة:

- أنقذها، أنقذ صغيرتي، لقد تركوها وسوف تحترق!

- وأين هي؟

- من هنا يا سيدي من هنا.

وأشارت بيدها إلى بناء من الخشب كانت النيران مشتعلة فيه من أعلاه إلى أسفله فتراجع بطرس قليلاً، أمام شدة الحرارة، ودار حول الحريق فوجد نفسه أمام بيت بدأت النيران تصل إليه، ومن النافذة

المفتوحة أبصر فتاة في عامها الثالث تقريباً نائمة في مهدها، فأخذ الفتاة بين ذراعيه فاستيقظت مذعورة وراحت تصرخ وتقاوم إلى أن عاد بها بطرس إلى الموقع الذي ترك فيه أمها، فجعل يسأل الناس عنها، فقالت له امرأة:

- لقد رأيت الأم تبكي، فتعال لأدلك عليها.

وفيما هو سائر استرعى انتباه بطرس جماعة من الأرمن هم أب وأم وفتاة وقد أحاط بهم عدد من الجنود الفرنسين، فقال بطرس للفتاة التي كانت تقوده:

- خذي الطفلة إلى أمها.

واقترب من الأرمن الذين كانوا يقاومون بشدة هجوم الفرنسيين عليهم ليسلبوهم ثيابهم، ورأى بطرس الجنود يجردون الأب من معطفه وحذائه، ويجردون الأم من شالها الفاخر، أما الفتاة فنزع أحد الجنود قلادتها من عنقها بشراسة.

وهجم بطرس على اللصوص، فجرد أحدهم سيفه، ولكن لم يتسع أمامه الوقت كي يستخدمه، لأن بطرس أصابه بلكمة جبارة ألقت به على الأرض على مسافة عشرة أمتار تقريباً.

وصفق الجمهور المحتشد وهم بطرس أن يسترد القلادة من السارق، وإذا داورية من الفرنسيين تخرج من الشارع المجاور، فيقبض عليه ضابطها قائلاً:

- لابد أنه من مشعلي الحرائق!

وسأله المترجم الذي صحب الداورية:

- من أنت؟

فصاح بطرس في عناء:

- لن أقول لكم عن اسمي، خذوني إن شئتم.

وكانت هذه الداورية مكلفة هي وغيرها بالقبض على مشعلي الحرائق، فاقتيد بطرس مع خمسة آخرين من المشتبه في أمرهم إلى مركز الحراسة.

واعتبروا بطرس بطبيعة الحال أشد الستة خطراً، فوضعوه في زنزانة منفردة، ولكن في اليوم التالي أحتاج أحد الضباط للزنزانة كي يقيم فيها، فوضعوه مع الخمسة الآخرين.

وبعد يومين قيل للستة أنهم سيقدمون للمحاكمة بتهمة إحراق موسكو، واقتادوهم مخترقين المدينة المخربة، إلى منزل عفت عنه الحرائق، وكان يقيم فيه الماريشال دافو.

وبعد أن تمت محاكمة الخمسة الآخرين، ادخلوا بطرس وحده أمام الماريشال الذي نظر إليه ببرود، وقال ليدخل الرعب على نفسه:

- أنا أعرفك، فأنت جاسوس روسي.

فاصفر وجه بطرس، واستعان بكل رباطة جأشه، فتذكر فجأة أن الماريشال دافو يحمل رتبة الأمير، فهو أمير "اكموهل" فقال له:

- كلا يا صاحب السمو، بل أنا ضابط في الجيش الاحتياطي ولم أغادر موسكو.

- وما اسمك؟

- اسمي يا صاحب السمو هو الأمير بطرس بزوخاو.

فرفع الماريشال حاجبيه دهشة وقال:

- أنت كذاب..

فصاح بطرس بصوت يفيض استنكاراً ونذيراً كمن يتحدى:

- صاحب السمو!..

فانتفض "دافو" لنبرة الصوت، وحملق كل من الرجلين في عيني الآخر صامتين بضع ثوان، وكانت هذه النظرة الثاقبة هي التي قررت مصير بطرس، لأن الماريشال ظل بعدها برهة غارقاً في التفكير، إلى أن أدخل عليه الياوران لمقابلة الإمبراطور، فخرج "دافو" معه بعد أن ألقى نظرة أخيرة على بطرس، وأشر على الأوراق بكلمة واحدة.

واقتيد بطرس مع السجناء الآخرين، فظل طول الطريق يتساءل ماذا عسى أن يكون مصيره، على أن وقف الموكب أمام هضبة، من خلفها حفروا خندقاً، ووقف الجنود صفاً واحداً والبنادق في أيديهم.

وجعل بطرس يستحث عقله للتفكير فوجده في حالة جمود تام، ثم شاهد أربعة من جنود فرنسيين يأخذون اثنين من الأسرى، فيعصبون أعينهم، ثم يربطونهما إلى سارية فوق الهضبة، فأغمض بطرس عينيه إلى أن سمع دوي الرصاص كأنه قصف الرعد، فلما نظر من جديد شاهد الجنود الفرنسيين وقد أصفرت وجوههم يدفعون بأرجلهم الجثتين إلى الخندق...

وقدم اثنان آخران من الأسرى فأعدما على هذه الصورة عينها، وقرأ بطرس على وجوه الضباط والجنود الحاضرين مصداق الألم الذي شعر به، وأخذ ينتظر دوره في جمود عقلي تام، إلى أن أدرك أنه أفلت من الإعدام حين شاهدهم في المرة الثالثة يأخذون زميله الباقي ويتركونه،

ومع ذلك لم يشعر بسرور، وأزداد رعبه حين أبصر المسكين يحاول الإفلات ويصرخ عبثاً.

وبعد أن تم كل شيء مر الطابور الفرنسي أمام بطرس بنظام، وهو يحدق فيهم بنظرات شاردة، وتفرق جميع المشاهدين في صمت واجم، واقتيد بطرس حيث حبسوه في كنيسة صغيرة متهدمة.

وفي المساء حضر ملازم فرنسي فأخبره أن الماريشال دافو أصدر عفواً عن حياته، ولكنه سيبقى أسير حرب، ونقلوه بعدها إلى معسكر الأسرى الذي كان يضم نحو عشرين رجلاً أحاطوا به وراحوا يرمقونه بتطلع.

وكان الجهد قد نال منه بدنياً ومعنوياً، كما كان الطعام حقيراً قليل الكمية، واتسخت ثيابه، وبات لياليه على القش، فتهدمت أعصابه، فجلس على الأرض وأسند ظهره إلى السور، ولم يحفل بالرد على أسئلة زملائه الأسرى، بل أغلق عينيه إلى أن سمع صوتاً من ورائه يقول له:

- لابد أنك تعذبت كثيراً يا سيدي.

فتحرك وتر في في قلب بطرس لرقة هذه اللهجة، وفتح عينيه ليرى بالقرب منه رجلاً قصير القامة، واصل التحدث إليه بصوته العذب الذي قطر حناناً:

- لا تحزن أيها الطائر الحبيس، فالحياة ليست سيئة جداً ها هنا، والفرنسيون بعد بشر، فيهم الطيب وفيهم الخبيث، خذ يا سيدي ثمرة البطاطس هذه، وكلها.

ولم يكن بطرس قد تناول شيئاً منذ الصباح، فشكر الرجل وأكل البطاطس التي وجد لها طعماً لذيذاً لشدة جوعه، وسأله الرجل:

- لماذا بقيت في موسكو يا سيدي؟

- لم أحسبهم سيدخلونها بهذه السرعة، وأنت؟ هل أنت جندي؟

- نعم. كنت في المستشفى مصاباً بالحمى مع هؤلاء الرفاق.

- وما اسمك.

- أفلاطون كاراتايف، وأنت يا سيدي، لك بيت طبعاً وزوجة ووالدان ولك أيضاً أطفال، أليس كذلك؟

فلما هز بطرس رأسه بالنفي، حزن أفلاطون فقال له:

- هون عليك يا سيدي، أنت لم تزل صغيراً وسيرزقك الله.

وبكل بساطة أخذ الجندي الفلاح القصير يقص على بطرس حياته، وكيف قبضوا عليه ذات يوم وجلدوه، وأرسلوه إلى الجيش عقاباً له على

دخوله بغير إذن غابة أحد النبلاء، وضحك أفلاطون وعلق على ذلك بقوله:

- لقد ظن الجميع أن هذه مصيبة نزلت على رأسي، ولكنها بالعكس كانت نعمة، فلو لم أقع في الجريمة، لكان أخي هو الذي ذهب إلى الجيش، فلما ذهبت أنا إلى الجيش عفوا عن أخي، وأخي والد لخمسة أطفال، أما أنا فليس لي إلا زوجتي، ولما ذهبت لزيارتهم في عطلتي وجدت الجميع في يسر ونعمة... فقلت الحمد لله. ولكن أراك تريد أن تنام.

ورسم الرجل الطيب فوق بطرس علامة الصليب، ثم طلب من الله أن يحوط الجميع بعناية، وبعد دقائق كان يغط في نومه.

وترك أفلاطون في نفس بطرس إحساساً عميقاً بأن هذا الرجل هو الممثل الحقيقي للروح الروسية في صفائها وبساطتها، وسره أن ينعم بصحبة هذا الفلاح شهراً في المعسكر، فلم يشعر بأي ضيق أو قلق من السجن، وظلت صورته ماثلة في ذهنه طول حياته.

الفصل الثامن عشر

بطرسبرج تلهو

في الوقت الذي تحترق فيه موسكو استمر المجتمع الراقي في بطرسبرج يعيش حياته اللاهية من استقبالات إلى حفلات رقص وارتياد مسارح، إلى الدسائس والإشاعات، من غير تقدير لخطورة الحالة.

ففي اليوم عينه الذي جرت فيه موقعة بورودينو أقامت آنا بافلوفنا حفلة ساهرة، ألقى فيها الأمير فاسيلي خطاباً من بطريرك روسيا إلى القيصر، وقيل إن ذلك الخطاب تحفة في البلاغة الدينية والوطنية.

وفي انتظار حضور جميع المدعوين أخذ الحاضرون يتحدثون عن مرض الأميرة إيلين ابنة الأمير فاسيلي وزوجة بطرس بزوخاو، وتهامسوا أن مرضها سياسي!

لأن أميراً وموظفاً كبيراً تقدم لخطبتها في نفس الوقت، فحز في نفسها أنها لا يمكن أن تزوجهما معا، فضلاً عن أنها لم تزل على ذمة بطرس!

ولما اكتمل عقد المدعوين ألقى الأمير فاسيلي الخطاب بلهجة متهدجة، فوقف الجميع يصفقون ويهنئون القارئ والمقروء، وقالت آنا بافلوفنا:

– قلبي يحدثني أننا سنسمع غداً أنباء طيبة في عيد ميلاد القيصر!

وصحت نبوءة آنا بافلوفنا، ففي اليوم التالي وصل ياور كوتوزاو معلناً أن الفرنسيين تكبدوا خسائر فادحة، ولم يستطيعوا الاستيلاء على شبر واحد يحتله الجيش الروسي، فجعل الأمير فاسيلي يقول لمن يقابلونه:

– كان رأيي دائماً أن كوتوزاو قادر على قهر نابليون!

***

ومرت بضعة أيام لم تصل فيها أنباء أخرى، فبدأ القلق يساور الناس، ثم أذيع نبأ اهتزت له أركان المجتمع الراقي، فقد توفيت الأميرة إيلين بزوخاو فجأة بالذبحة الصدرية، وتهامس العالمون ببواطن الأمور أنها سئمت إلحاح خطابيها المتنافسين على يدها، كما سئمت قسوة زوجها، فتجرعت مقداراً كبيراً من الحبوب المنومة.

ونسى الناس الحب كي يتحدثوا عن نهاية إيلين الفاجعة، وشغلهم موتها إلى أن وصل رسول آخر من القيادة يحمل نبأ التخلي عن موسكو

وإحراقها، فانقلب الثناء على كوتوزاو سباباً ولعنات، وكان فاسيلي يقول لمن يعزونه في ابنته:

– هذه نتيجة الاعتماد في مصير الوطن على مغفل عاجز مثل كوتوزاو!

***

وفي هذا الوقت الذي تباكى فيه سكان بطرسبرج والولايات البعيدة على كوارث الروسيا، كان الجيش المدافع عنها يزن الحوادث بهدوء ويواجه المستقبل في ثقة.

ولهذا نجد نيقولا رستاو في حالة معنوية عالية حين تلقى الأمر بالتوجه على فورنيو مع كتيبته، فذهب لتحية العلم بمجرد وصوله وهو في أتم زينة، فقال له:

– أنت ابن الكونت رستاو، وزوجتي صديقة والدتك، فتعال الليلة عندنا.

وتوجه الكونت نيقولا رستاو محلياً صدره بوسام القديس جورج، فالتفت حوله في صالون الحاكم جميع الحاضرين، ولاسيما خلية كاملة من الشابات الحسان الراغبات في الزواج، فأظهر كل براعته في الحديث وفي الرقص، وجعلت ربة الدار تعامله كأنه من أهل البيت، وتناديه باسمه مجرداً.

وفي فترة استراحة بين الرقصات قالت له:

- يا نيقولا، إن إحدى صديقاتي كنت أنت الذي أنقذت بنت أخيها، وتريد أن تعبر لك عن امتنانها العميق.

فقال الشاب في خيلاء:

- سيدتي، لقد أنقذت نساء كثيرات، فأيهن تعنين؟

- التي أعنيها هي الأميرة ماري بولكونسكا، ولكن لماذا احمر وجهك؟

- أؤكد لك أن وجهي لم يحمر.

وقدمته زوجة المحافظ إلى عمة الأميرة ماري، وهي الأميرة كاراجوين، فدعته لزيارتها، لأن ابنة أخيها تقيم عندها، فاحمر وجهه مرة أخرى ووعد بالزيارة.

وانتحت به زوجة المحافظ جانباً وقالت له:

- عندي لك عروس ممتازة، أترغب في الزواج؟

- ومن هي يا خالة؟

- الأميرة ماري بولكونسكا، ستسعد أمك كثيراً بهذا النسب! ثم إن الأميرة ليست قبيحة الشكل إلى هذا الحد.

- ولكني لا أرها قبيحة بالمرة.

ثم ندم على تلك الكلمة لأن امرأة المحافظ اعتبرتها إقراراً بالقبول وقالت وهي تتركه بلهجة ذات معنى:

- اتفقنا، دع الباقي لي.

فظل بقية السهرة حائراً ماذا يصنع في وعده لسونيا، وفي نهاية السهرة قالت له:

- لا تنس أننا اتفقنا.

- صبراً، إن كانت أمي راغبة حقاً أن أتزوج من فتاة غنية فأنا أؤكد لك من جانبي أن هذه المسألة تضايقني، وأنا أفكر فيها كثيراً، واعترف أنها خفيفة الظل، ولكن هناك بنت عم لي هي سونيا، كنت وعدتها أن أتزوجها، وأنا أريد أن أبر بوعدي.

- إن حالة أبيك المالية لسيئة، وسونيا فقيرة، وهذا الزواج سيكون سبباً في يأس والدتك وقنوطها، ويجب أن تفهم هذا أنت وسونيا.

فصمت نيقولا وقد تزعزع عزمه أمام هذا المنطق السديد، ثم قال:

- وهل تقبلني الأميرة زوجاً؟ إنها في حداد على والدها، ولا يليق الكلام في الزواج الآن.

فضحكت زوجة المحافظ وقالت:

– لا تظن أني سأزوجك هذه الليلة، دع لي هذه المسألة.

فقبل نيقولا يدها وقال وهو منصرف:

– ما أعظم كرمك!

وفي اليوم التالي أسرعت زوجة المحافظ بزيارة عمة الأميرة ماري وفاتحتها، وفي الوقت نفسه حرصت أن تقول أمام ماري، إن وجه نيقولا أحمر جداً عندما ذكرت له اسماً.

وكانت ماري تعيش في عزلة وتحاول أن تنسى التقاءها بنيقولا والأثر الذي تركه في نفسها فشعرت بعد ذلك أن هذا الأمل الجميل سيداعب خياله ويعكر عليها طمأنينتها الراكدة.

وبعد بضعة أيام ذهب نيقولا لزيارة عمة ماري، فمدت إليه ماري يدها في حركة تجمع بين الرشاقة والوقار، وتحدثت إليه في رقة وأنوثة أذهلت الآنسة بورين التي كانت موجودة معها.

وكرر نيقولا تلك الزيارة جملة مرات، وفي كل مرة يتأهب للاعتراف بحبه لها، ثم يحجم عندما يتذكر وعده لسونيا، إلا أن ملامح ماري الدقيقة ونظرتها الصافية، وحركاتها الرشيقة، وحزنها الوديع، كل هذا استولى على قلبه ولبه.

وفي ذات مساء وهو يتأهب للعودة إلى الجيش بعد أن فرغ من شراء الخيول التي تدرب للحصول عليها، تلقى خطاباً من أمه وخطاباً من بنت عمه.

وشحب وجهه عندما قرأ خطاب سونيا، ولم يكد يصدق عينيه، فإنها كتبت إليه تقول أن حب نيقولا يهدد الأسرة بالشقاق والخراب، وهذه الأسرة آوتها يتيمة، وكفلتها خير كفالة، ولهذا فهي تفضل أن تحل نيقولا من وعده، وفي الوقت نفسه ترجوه أن يثق دائماً، أنه ما من أحد يمكن أن يحبه أبداً كما أحبته هي.

أما الكونتس فوصفت له رحليهم عن موسكو، وحريق المدينة، والخراب الشامل الذي أصاب ممتلكاتهم، وروت له أن الأمير أندريه جريح مشرف على الموت، وأنه معهم، وإن ناتاشا وسونيا تقومان على تمريضه.

وأسرع نيقولا فقدم خطاب والدته إلى ماري، وبعدها زادت صداقتها، لأن أخاها نزيل على أسرته وهي التي تعني به في مرضه الخطير.

وأبدت ماري رغبتها في الذهاب إلى مقر أسرته الجديد في باروسلاف، فصحبها إلى هناك هي وابن أخيها كي تزور أندريه.

وكان الطريق غاصاً بالجند، فاخترق بها طرقاً جانبية، واستغرقت الرحلة إلى باروسلاف أسبوعين.

وكان آل رستاو مقيمين في بيت أحد التجار على شاطئ نهر الفولجا، واستقبلت الكونتيس الأميرة ماري بكل ترحاب وقبلتها قائلة:

- إني أعرفك واحبك منذ زمن طويل يا ابنتي.

- وكيف حال أخي؟

- إن الطبيب لم يصدر قراره بعد، أهذا ابنه؟ ما أجمله.

وأقبل الكونت رستاو وقد أصبح متهدماً واجماً، وكانت ماري تعهده كثير المرح جم العافية، وقدم إليها سونيا، فغالبت ماري شعورها الخفي بالعداء لها وقبلتها، فقالت سونيا وقد أحمر وجهها:

- إن شقيقك في الطابق السفلي يا أميرتي، وناتاشا معه.

وأوشكت ماري أن تطلب إلى الكونتس مرافقتها إلى هناك، وإذا ناتاشا تدخل، فنسيت الأميرة ماري ما كان بينهما من عدم استلطاف في المقابلة السابقة، عندما رأتها مخلصة في تألمها لأخيها، فاحتضنتها وبكت على كتفها، فقالت ناتاشا:

- تعالى بنا إليه يا ماري، إن الطبيب كان يساوره الأمل حتى الأيام الأخيرة، ثم طرأ شيء فظيع، آه يا عزيزتي ماري، أنه أطهر نفساً من أن يعيش في دنياها.

فأدركت ماري أن النهاية قريبة، ودخلت على الفور حجرة الجريح وقد استجمعت شجاعتها لمواجهة الموقف، وإذا به يسألها على الفور:

- هل أحضرت معك صغيري نيقولا؟ ما أعجب تصاريف القدر! إذ يجمعنا على هذه الصورة، هل تعلمين أن الكونت نيقولا رستاو متعلق بك، وأنه كتب يستأذن والديه؟ تزوجيه يا ماري إذا كنت تحبينه كما يحبك.

- دع الحديث عني الآن يا أندريه، أتريد أن ترى نيقولا الصغير! وابتسم ابتسامة باهتة، ولما دخل الصغير نظر إلى أبيه واضطراب ولكنه لم يبك، فقبله أندريه وحملق فيه طويلاً من غير أن يتكلم.

وبكت ماري، فأدرك أندريه أنها لا تبكيه فحسب، وإنما تبكي أيضاً على ابنه الطفل الذي سيصبح يتيماً.

***

ومنذ تلك الليلة تناوبت الشابتان السهر على المريض الذي لم تفارقه الحمى بعد ذلك، وذات مساء وقد جلست ناتاشا بجواره تطرز، جعل أندريه يتابع حركاتها الرشيقة بنظراته، وخيل إليه فجأة أنه سيموت قريباً، وأن القدر لم يجمعهما إلا عبثاً فزفر زفرة عميقة.

ورفعت ناتاشا رأسها وقالت له:

- ألست نائماً؟

- كلا بل كنت أنظر إليك، أنك تمنحين نفسي الهدوء والإشراق، إني أحبك كثيراً وكنت أود أن أعيش كي حبك كما ينبغي، قولي لي أني سأعيش.

- إني واثقة من هذا.

فقبل أندريه يدها قبلة طويلة، فقالت له بحنان:

- أنت بحاجة إلى الراحة، إن كنت تريد أن تسرني فنم.

فنام الأمير نوماً قلقاً، واستيقظ جملة مرات فزعاً، وقد تضح جسمه بالعرق، ودخلت الأميرة ماري الحجرة فتبادلت مع ناتاشا نظرة آسى.

***

ولم تفارق الشابتان فراش المريض يومين متواصلين، فقد أخذت قواه تضمحل، وتنبه قليلاً ليقبل ابنه قبلة أخيرة، ثم أسلم الروح وهو شاخص ببصره إلى ناتاشا التي أغمضت عينيه في خشوع.

وامتزج في الحزن عليه دمع آل رستاو بدمع الأميرة ماري وعبرات الأمير الصغير نيقولا بولكونسكي.

الفصل التاسع عشر

فشل نابليون

يئس نابليون من السيطرة على روسيا أمام تلك المقاومة الباسلة الكبرى والطبيعة القاسية، وفقد الكثير من جنوده وعتاده في هذه الحرب الهائلة وفي تلك المغامرة الكبرى فقرر الانسحاب.

وبدأ جلاء الفرنسيين عن موسكو في اليوم السابع من أكتوبر، وأخذ الفرنسيون معهم عند الانسحاب بطرس بزوخاو ورفاقه الأسرى، وبدأت في الحال حرب العصابات التي حطمت الجيش الأعظم في انسحابه، وأبلى القوزاق والفلاحون في عرقلة تحركات الأعداء بلاء رائعاً.

وكان دنيساو يقود فرقة من العصابات، فكمن في ٢٢ أكتوبر في غابة على طريق سمولنسك، في انتظار مرور قافلة الأسرى الروس، يحرسها مشاة وخيالة من الفرنسيين، واغتاظ دنيساو لأن المطر بدأ ينهمر، ولم يكن أكل شيئاً منذ أمس، ولم تصل إليه أنباء من دولوخاو الذي كان يقود عصابة أخرى وكان قد وعده بالتعاون معه في هذا الهجوم.

وأقبل نحو دنيساو ضابط حديث السن جداً وبصحبته أحد القوزاق، فسلمه خطاباً، ورفع دنيساو رأسه فعرف في الضابط الحديث السن بطرس رستاو، فاحتضنه مرحبا، فأدى بطرس التحية العسكرية وقال:

- ما هي أوامر سعادتكم؟

- إن الجنرال أرسلك لتلازمني، فأمكث معي إلى الغد.

وأقبل المساء، فتوجه دنيساو وبتيا (تصغير بطرس) إلى كوخ جماعة من الضباط حيث أعد القوزاقي العشاء، ولم يكادوا يتموه حتى دخل أحد ضباط الحرس وعلى صدره وسام القديس جورج، وكان هو دولوخاو، فسأل دنيساو عن معلوماته عن قافلة الأسرى، ثم قال:

- يجب أن نعرف أخبارهم وخط سيرهم، لابد من التجسس، أنا أعرف الفرنسية جيداً، فمن يأتي معي ليرتدي ثياباً فرنسية موجودة في حقيبتي؟

فنهض بتيا متطوعاً، وحاول دنيساو أن يرجعه عن عزمه فتشبث الفتى وسرعان ما ارتدى هو ودولوخاو كسوتين عسكريتين فرنسيتين، وركبا جواداً في اتجاه معسكر العدو، إلى أن صاح بهما الديابان بعد فرسخ:

- من هناك؟

فأجاب دولوخاو بلهجة باريسية:

- ضابطان من الفرقة السادسة.

- كلمة المرور؟

- لا يحق للديابان أن يسأل الضابط في جولته التفتيشية.

فتنحى الجندي واتجه دولوخاو مباشرة إلى نار عظيمة جلس حولها على الأرض نفر من الضباط، خاطبهم دولوخاو قائلاً:

- طاب مساؤكم يا سادة.

فرد الضباط التحية وسألوا الضابطين عن مقصدهما، فقال دولوخاو:

- لقد ضللنا الطريق ويسعدنا أن يدلنا أحدكم على موضع الفرقة السادسة أو خط سيرها.

وخيل إلى بتيا أنه لمح نظرات ريبة بين الضباط، ثم اطمأن عندما قهقه أحدهم قائلاً:

- إن كنتما تطعمان في العشاء معنا فقد وصلتما متأخرين.

فقال دولوخاو أنهما أيضاً أكلا، ثم جلسا بقرب أحد الضباط وقد لاحظ أنه لا يحول بصره عنه، ثم أخرج بيبته وأشعلها بهدوء وسأل:

- هل طريقنا خال من القوزاق؟

- إن هؤلاء الملاعين في كل مكان.

- ليسوا خطرين إلا على المنعزلين منا، مثل رفيقي وأنا.

واستمر يسأل الضباط عن عدد الكتائب وتكوينها وعدد الأسرى، وبتيا مذهول من هذه الجرأة، يتوقع في كل لحظة كارثة، ثم رأى دولوخاو يمتطي جواده ببطء ويبتعد على مهل بعد أن حيا الضباط ففعل مثله من غير أن يجسر على النظر وراءه، إلى أن ابتعدا، فقال دولوخاو لبتيا:

- إلى الملتقى، أبلغ دنيساو إني سأكون هناك عند أول قذيفة.

- إنك بطل حقاً!

ثم قبل دولوخاو بحماسة، فضحك واختفى في الظلام.

وكان دنيساو بدأ يشعر بالندم لرحيل بتيا وازداد قلقه بعض الوقت إلى أن رآه مقبلاً، فقص عليه بتيا المعلومات، وخرجا عند الفجر إلى حافة الغابة، ثم دوى طلق ناري إشارة بالهجوم، فهجم القوزاق على المعسكر الفرنسي وهم يصيحون صيحة الحرب، وهجم بتيا معهم غير

مصغ لأمر دنيساو له بالبقاء إلى جانبه، ووجد نفسه أمام كوخ تحصن فيه الفرنسيون وأمطروا منه القوزاق ناراً حامية، فأطلق لجواده العنان، وهجم على الكوخ إلى أن ألقى من فيه السلاح، وفجأة ترنح عن جواده وسقط على الأرض، وقد اخترقت رصاصة فرنسية جمجمته.

وفي نهاية المعركة بحث عنه دنيساو إلى أن وجده، فانفجر باكياً شباب هذا الغلام الغض، إلى أن سمع صيحات الفرح من الأسرى الروس الذين أطلق سراحهم، فأشاح بوجهه وأمر اثنين من القوازق فحملاه ووقف يدفنه معهم تحت ظل شجرة كبيرة دائمة الخضرة.

أما دولوخاو فاستعرض الأسرى الفرنسيين، ثم قال كلمة واحدة رهيبة بكل برود وبساطة:

- لا تأخذي أسرى!

ونفذ القوزاق المهمة، أعدموهم صفاً واحداً.

وكان بين الأسرى الروس الذين أطلق سراحهم الأمير بطرس بزوخاو.

الفصل العشرون

ثمرات السلام

استأنفت أسرة رستاو بعد وفاة الأمير أندريه حياتها العادية شيئاً فشيئاً، ما عدا ناتاشا التي ظلت أياماً بطولها غارقة في حزن أليم.

وذات يوم، وهي مطرقة تفكر في الأمير أندريه، أخرجتها الوصيفة من خواطرها وقد دخلت عليها بسحنة مقلوبة تقول:

– مصيبة يا سيدتي! أنباء عن أخيك!

فتوجهت إلى الصالون ورأت أباها وقد تخضل وجهه بالدمع:

– بتيا يا ناتاشا! اذهبي إلى والدتك..

فأسرعت إلى حجرة الكونتيس، التي كانت تصرخ وتلطم وجهها، وترفض أن تصدق أن صغيرها بتيا مات، فتلقت ناتاشا أمها بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها، وأخذت تقبل يدها ووجهها لتسرى عنها، فهدأت المسكينة قليلاً، ولكن لتعود مرة أخرى إلى الهياج، وهي تأبى أن تظن نفسها قادرة على الحياة وقد مات صغيرها المحبوب.

واستطاع حنان ناتاشا وصبرها أياماً طويلة متوالية، لا أن ينسى الثكلى المسكينة عزيزها المقتول، بل أن تجعل الحياة تدب في قلب تلك الأم، وتحيي فيها الرغبة في الحياة من أجل من بقوا لها.

وكان هذا السهر الطويل المستمر بجوار فراش أمها قد اتعب ناتاشا، فأصبحت ضعيفة جداً، وخشي الكونت عليها فدفعها إلى التوجه إلى موسكو لتستشير طبيباً كبيراً، وسافرت معها ماري ابنة أخيها الصغير، ووصل ثلاثتهم إلى موسكو في الأسبوع نفسه الذي وصل فيه إلى هناك بطرس بزوخاو، ونزل في جناح من قصره الذي كان الحريق قد أبقى عليه.

***

وكانت الحياة قد دبت في المدينة الكبيرة وبدا الاحتفال بالنصر وأخذ الجميع يسألون بطرس عن مشاهداته في الأسر، فكان يجيب دائماً بطيبته المعهودة، ولكن في حزن للفظائع التي مرت به، ولاسيما إعدام المسكين أفلاطون كاراتايف، الذي أعدمه الفرنسيون لأنه كان في غاية التعب فلم يستطع متابعة القافلة في سرعتها.

وبعد خلاصه من الأسر كان قد علم بوفاة الأمير أندريه وبتيا، ووفاة زوجته إيلين، وزار الأمير تروبتسكايا فعرف منها أن الأميرة ماري موجودة في المدينة، فأحب أن يعرف أخبار لحظات أندريه الأخيرة، فتوجه لزيارة الأميرة ماري، فاستقبلته في حجرة صغيرة بها شمعة واحدة، وبالقرب منها

جلست امرأة في ثياب سوداء، لم يعرفها لأول وهلة ثم التقى نظره بنظرها فانتفض وصاح:

- مستحيل، ليست هذه ناتاشا! هذا خيالها الشاحب!

فأضاء الوجه الشاحب بابتسامة، وفاضت عيناها الواسعتان بالحنان، فاهتز قلب بطرس اهتزازاً عميقاً، وقالت ماري:

- كانت بحاجة إلى عناية الطبيب... فأحضرتها معي.

وبناء على طلب بطرس قصت عليه ماري مرض أندريه وأيامه الأخيرة، فقال بطرس وهو ينظر إلى ناتاشا:

- ما أسعد حظه أن تغمضي عينيه...

فخفضت بصرها، وفي هذه اللحظة تكلم مؤدب الصغير نيقولان من وراء الباب ليسأل هل يأذن للطفل بالدخول للتحية.

ودهش بطرس للشبه العجيب بين نيقولا وأبيه الراحل، فقبل ابن صديقه بكل حنان، ورغب في الانصراف، بيد أن ماري أبقته للعشاء، فلما جلس الثلاثة إلى المائدة ساد الصمت، إلى أن قطعته ماري قائلة لبطرس:

- لقد رويت لنا عنك أساطير في هذه الحرب.

- نسبوا لي فعلاً أعمالاً لا أدري عنها شيئاً.

- ألم تسمع بموت الأميرة إيلين قبل رحيلك عن موسكو؟

- كلا، بل بعد عودتي إليها.

- ها أنت قد رجعت عزباً، وفي استطاعتك أن تتزوج.

فاحمر وجهه، وعندما نظر إلى ناتاشا وجد وجها صارماً جامداً، وقالت ماري:

- يقال أنك رأيت نابليون وتحدثت إليه.

- نكتة لطيفة، فرق كبير بين أن يكون الإنسان أسيراً لدى نابليون أو ضيفاً عليه!

وشيئاً فشيئاً أخذ يروى ما حدث له من مغامرات، وما شاهده من آلام وفظائع كاد يمسي ضحيتها شخصياً.

ولم يفت ناتاشا كلمة واحدة من كلامه، وكأنها كانت تعيش معه في الحوادث التي يرويها، وحركت قصة الطفلة التي أنقذها من الحريق حماسة ناتاشا فصاحت:

- لا أصدق أن المسألة كانت في هذه البساطة! لابد أنك فعلت شيئاً.. رائعاً!

أما ماري فكانت تصغي في شيء من التردد، لأنها كانت تفكر في الوقت نفسه في إمكان نشوب غرام آخر بين ناتاشا وبطرس بزوخاو.

وفي نهاية حديثه قال بطرس وهو ينظر إلى ناتاشا:

- يبدو لي أن حياة جديدة أخذت تدب في الدنيا، إن المستقبل جميل، وبعد أن لقيت ألواناً من الألم والعذاب أريد أن أعيش.. وأنت كذلك؟

فخفضت ناتاشا رأسها ولم تجب، وقال بطرس لنفسه وهو في الطريق إلى بيته:

- سأبذل كل جهدي لتغدو زوجتي.

وفي اليوم التالي عاود الزيارة، فوجد ناتاشا وقد ازدهر لونها قليلاً وزاد توهج نظرتها بالرغم من ثوبها الأسود..

وفي اليوم التالي ذهب أيضاً وسهر طويلاً، لأنه لم يستطع أن يحمل نفسه على الانصراف من بيت يشعر فيه بالسعادة كلها، حتى أن ناتاشا تعبت من السهر فانصرفت، وبقى بطرس مع ماري وحدهما، فاقترب منها وقال في شيء من الحرج:

- أرجو منك.. هل أستطيع أن أطمع أن تكون ناتاشا.. إني أعلم أني لست جديراً بها، والوقت ليس مناسباً بسبب الحداد.. ولكني كنت

دائماً أحب ناتاشا، والحياة من غيرها ليست شيئاً في نظري فلا أجسر أن أطلب يدها، فانصحيني يا صديقتي.

وكانت ماري قد لاحظت التحسن الذي طرأ على ناتاشا منذ بضعة أيام، وأدركت أن الفتاة لا تخلو من الحب لبطرس، فقالت له:

- إن الوقت فعلاً مبكر للحديث عن الزواج، ولكني مقتنعة أنها ستحبك، ولك أن تعتمد علي.

فشد بطرس على يد ماري بكل امتنان، وقالت له:

- تقدم بطلبك إلى والديها، وسأتكفل أنا بالباقي في اللحظة المناسبة، فجعل بطرس يقبل يدها ويصيح:

- يا لسعادتي...

وفي اليوم التالي حضر بطرس للتحية قبل التوجه إلى بطرسبرج بدعوة من القيصر، فأحس أنه يكاد يسقط مغشياً عليه عندما التقى بصره بعيني ناتاشا الجميلتين، وقال:

- ويحي-! أنا لا أستطيع أن أصدق أمر هاتين العينين، وهذا الكنز من الجمال والفتنة سيكون ملك يميني يوماً ما!

ولكنه استطاع أن يصدق وهي تصافحه مودعة:

– صحبتك السلامة، وسأنتظرك بصبر نافذ

فكانت هذه الكلمة الساذجة كافية، كي يجن فرحاً، ولم يكن له نشيد يكرره كلما خلا إلى نفسه مدة غيابه التي طالت شهرين سوى.

– سأنتظرك بصبر نافذ.

وأحست ناتاشا بحياة جديدة وقوة جديدة وأمل في السعادة أخذ يملأ كيانها بالعافية والحيوية، حتى لقد تساءلت ماري:

– هل كان حبها لأخي واهياً حتى نسيته بهذه السرعة؟

ومع ذلك لم تجرؤ على الغضب منها، لأنها هي أيضاً أحبت نيقولا رستاو، ولذلك صارحتها بسر بطرس، فسألتها ناتاشا:

– أتحبينه؟

فبكت وأومأت برأسها أنها تحبه، فقبلتها ماري وقالت:

– لا تبكي يا عزيزتي، وليكتب لك الله السعادة معه.

***

تزوجت ناتاشا بطرس بزوخاو في سنة ١٨٣١. وبعد مدة وجيزة لزم الكونت رستاو الفراش متأثراً بخسارته المالية. ووفاة الأمير أندريه، ثم وفاة بتيا (بطرس الصغير) وسوء صحة الكونتس. وقرر الأطباء أن حالته

ليست خطيرة ولكنه كان يعلم أنه لن يشفى. وأخذت شعلته تنطفئ رويداً رويداً.

وكان أصدقاؤه يحضرون جماعات جماعات لتوديعه في مرضه الأخير. وكلهم ممن طالما نعموا بضيافته ومآدبه السخية وطيبة قلبه. أما ابنه نيقولا فكان غائباً في باريس مع جيش الاحتلال الروسي حين وصله نعي أبيه. فطلب التقاعد ثم عاد على موسكو.

وكانت الديون التي تركها الكونت رستاو تزيد على قيمة ممتلكات الأسرة. فنصحه الكثيرون أن يرفض الميراث ليتخلص من الالتزامات. بيد انه أبى محافظة على اسم أبيه وتعهد بوفاء جميع الديون.

وكان الدائنون من التهذيب أمام مصيبة الأسرة بحيث سمحوا لنيقولا بمهلة، واقترض من زوج شقيقته بطرس ثلاثين ألف روبل دفعها فوراً، ثم التحق بوظيفة إدارية. وأقام في مسكن صغير مع أمه سونيا، وبذل المستحيل في تقليل النفقات. وتعهدت سونيا بتدبير المنزل وتمريض الكونتيس، ولم تحاول أن تستغل ذلك لتجديد حب نيقولا لها.

وعجب الناس حين وجدوه لا يقدم على طلب يد الأميرة ماري رسمياً. اللهم إلا ماري نفسها التي أدركت السر، فذهبت بنفسها لزيارة الكونتيس، واستقبلتها نيقولا بمجاملة رسمية جداً فقادها إلى حجرة والدته. ثم انصرف متعللاً بارتباطه بموعد سابق...

وبعد تلك الزيارة لم تكف الكونتيس عن التحدث إلى ابنها من الأميرة ماري:

- يجب أن تذهب يا بني لزيارتها. فقد فتحت بيتها للزوار.

ولما رأت نيقولا صامتاً ألحت عليه قائلة:

- لقد كانت تعجبك فيما مضى. ولست أفهم سلوكك نحوها في الوقت الحاضر، فهل هناك سر تطويه عن والدتك؟

- سأذهب لزيارتها إرضاء لك.

- بل تذهب إرضاء لنفسك لا لي يا بني.

وتكررت هذه المناقشة في الأيام التالية، ونيقولا يعد ثم يخلف، وهو يرجو أن تسأم والدته فتكف عن الإلحاح...

وبعد شهرين قيل للأميرة ماري. وقد بلغ الشتاء أشده أن نيقولا حضر لزيارتها. فأدركت أنه جاء في زيارة مجاملة رسمية. وعاملته على هذا الأساس.

وبعد عشر دقائق من حديث عادي. نهض. فأدهشه أن تظل جالسة شاردة عنه في أفكار حزينة انعكست على محياها. فأخذته بها الشفقة وأخيراً تنبهت لوقوفه فتنهدت وقالت:

- عفوك. أتريد ان تنصرف حقاً الآن؟

وتبادلا نظرة تفيض بالأسى في صمت إلى أن قال:

- يخيل إلى أننا في بوجوتشاروثي حيث التقينا أول مرة، ليت الزمان يعود لأعيش تلك الفترة من عمري من جديد!

- ولماذا تفضل ذلك الماضي على الحاضر يا كونت؟ لقد تقاربت الآن أسرتانا. ولكني رأيتك تغيرت وتباعدت. فلماذا؟

- هناك أسباب وأسباب...

- ما هي يا كونت؟

فصمت لا يجيب فاقتربت منه عندئذ وقالت بصوت خافت:

- إني أجهل أسبابك، ولكن هذا لا يمنع أني أتألم لأنك تصر الآن على حرماني من مودتك الكريمة. وقد عشت محرومة من السعادة. لهذا أجد ذلك الحرمان من جانبك يبهظ كاهلي، ولكن عفواً ووداعاً.

وهمت أن تنصرف فإذا به يقف بينها وبين الباب ويهتف بها:

- بحق السماء يا ماري!

وتبادلا نظرة طويلة عميقة. فإذا الذي خيل إليهما منذ لحظة أنه مستحيل، قد صار فجأة حقيقة لا مناص منها.

وعقد زواج الكونت نيقولا رستاو والأميرة ماري في العالم التالي. واستقرا في لسيجوري مع الكونتيس وسونيا.

وأقبل نيقولا على العمل بكل جهد في استغلال الأملاك وإصلاحها، بحيث استطاع في مدى ثلاثة أعوام أن يفي بجميع ديونه. ويرد إلى زوج أخته قرضه الحسن، واشترى ضيعة مجاورة للسيجوري من غير أن يرهن شيئاً من أملاك زوجته.

واتجه همه إلى تحسين حال فلاحيه، لأنه أدرك مدى دينه ودين ذويه لعملهم الشاق.. وكان يقول لزوجته:

- إن لم يجد الفلاح قوته ويشعر بالحياة. فكيف يعمل لنا أو لنفسه؟

وفي فصل الشتاء حين يكسو الجليد الأرض كان ينصرف إلى القراءة طول الوقت. ويسعى لتكوين مكتبة خاصة ذات قيمة.

وأتاح له اتصاله الوثيق بماري أن يكشف فيها كنوزاً من الحنان والذكاء. أما سونيا فكانت منصرفة للعناية بالكونتيس وبالأطفال. والجميع يتقبلون خدماتها المخلصة بصورة طبيعية من غير اهتمام. كما يتقبلون من البقرة ألبانها. ومن الأرض ثمراتها الطيبة!

الفهرس